هبة زايد

سلسلة ممالك الجبال

أكاكوس

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أكاسوس

سلسلة ممالك الجبال

هبة زايد

عن الكتاب..

"صراخ مفزع يشق سكون الليل تخشى منه النفوس، تهرع منه القلوب التي تهاب العتمة لما قد يحدث هنا في جبال أكاكوس مملكة الجان على الأرض.

استيقظ تاج الدين فزعًا من الصوت الذي سمعه، قام مسرعًا إلى خارج غرفته وجد أمه تبكي جالسة على الأرض؛ نزل إلى جوارها يمسح على رأسها:
- ما بك يا أمي؟ لِمَ تصرخين الآن؟ هل رأيت كابوسًا مزعجًا؟

- رأيت أوسًا في مأزق، وجدته في رؤيتي بمكان مظلم يبدو كأنه صحراء مخيفة."

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهـــــداء

لمن يبحث عما فُقِد، لا تيأس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكر خاص

لصفاء عبد الوهاب، وآية يوسف،

ومجموعة «كلام روايات».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«المعركة التي تنتصر فيها وحدك لا تحتفل بها مع الذين تخلوا عنك وأنت تحت ضرب السيوف».

عمر المختار

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول
بداية الخطر

لم يكن من الصعب جمع الأعداء معًا كي يضربون بسوط واحد ليؤلم بقوة من يريدون له السقوط.

استيقظت عائشة فَرِحة لتودع أباها قبل بدء رحلته الاستكشافية الجديدة، سيغيب شهورًا طويلة لن تراه إلا حينما يعود، غسلت وجهها ثم خرجت بحثًا عن أبيها فوجدته يجلس في الشرفة يتناول وجبة الإفطار قبل خروجه لمطار إسطنبول الدولي ليقلع بطائرته إلى المكان الذي يتطلع إليه منذ سنوات، ابتسمت متوجهة إليه فقبَّلت رأسه ويده ثم فعلت المثل مع أمها، فبادلاها التحية.

وضعت ذراعيها على كتفي والديها مازحة:

- أرى أن الإفطار بدأ من دوني، كيف تفعلان ذلك؟ ألا تعلمان عاقبة ذلك الأمر!

- لا نعلم ما العقاب ولا نريد أن نعرفه يا عائشة، اذهبي أيقظي جدتك لتتناول الإفطار معنا؛ نحن ننتظركم جميعًا، لن يرحل أبوكِ إلا بعد رؤيتكم.

ظلت تمازحهم طالبة من أبيها أخذها معه تلك المرة فهي تتوق إلى مغامرة كبيرة كما وعدها سابقًا، لكنه أبى كعادته خوفًا عليها؛ فهو دومًا يلقي بنفسه في أخطر الرحلات البرية لا يأبه لأحد سوى تحقيق طموحاته من الاكتشافات التي يبحث عنها منذ زمن طويل، ورثت ابنته روح المغامرة التي لديه بل وتعمقت في تخصص دراسته هو كي تصبح مثله يومًا.

رأى كيرال الخوف يظهر على وجه زوجته لأنه يلقي بنفسه دومًا في رحلات خطيرة، قد يصيبه مكروه فلا يعود إليها، ستصبح حينها لأولادها الأم والأب، هذا أمر صعب، لاحظ كيرال شرودها فعلم أنها تفكر فيما سيحدث..

أخذ بيدها مقبِّلًا رأسها مردفًا:

- تعلمين أن هذا عملي، ثم إنني أحلم بتلك الرحلة منذ مدة طويلة، سيكون اكتشاف سر تلك المنطقة عظيمًا إن حققته أنا، سأنال الكثير من الشهرة.

أشاحت بوجهها بعيدًا عنه متحركة لتستند على سور الشرفة قائلة:

- ماذا إن حدث لك مكروه؟ كيرال، لن أستطيع أن أكون وحدي، ماذا ستفعل بشهرتك حينها؟

- لا تخافي يا فاتن، معي فريق كامل للعمل وسأوافيكم بمكالمة يوميًّا.

كانت ممسكة بيديه تضغط بقوة، لكنها لن تستطيع أن تمنعه من الذهاب وراء حلمه وعمله الذي يحب؛ لأنها مهما فعلت لن تستطع تغيير رأيه..وقفت عائشة تراقب الوضع بصمت، لطالما تحب المغامرة مثل أبيها؛ فلا تدري لِمَ تفعل أمها كل ذلك!أهناك سر خلف خوفها الزائد في كل رحلة يذهب إليها أبوها؟ ! نفضت عن رأسها غبار الأفكار ذاهبة لتوقظ جدتها لتودع أباها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحراء جرداء لا يوجد فيها حياة تسير فيها نهارًا تستمع إلى أبشع الأصوات التي تجعلك لا تقوى على الحراك لحظة، وإن سرت فيها ليلًا لن تخرج من ظلمتها، تحيط بك الرمال من كل جانب فلا تعلم بأي اتجاه أنت، هل الطريق الذي سلكته صحيح أم سيغير مسار حياتك للأبد؟

تنهد أوس مطولًا مردفًا:

- لا أعلم لماذا يريد البروفيسور كيرال المجيء إلى (كاف الجنون) في تلك الفترة، أسأل الله السلامة له ولنا.

رفعت حاجبها بابتسامة ماكرة تستفزه وسط تجمع الفريق قائلة:

- يبدو أن أوسًا بن عمر المختار، المتفاخر بكونه من بلد أسد الصحراء خائف على نفسه من المنطقة التي يدعون أنهم يرون بها أشياء عجيبة.

صفق لها أوس مبتسمًا بجانب فمه يردد:

- هل أنهيتِ العرض يا ثريا أم مازال لديك بعض الكلام لتضيفيه، لكنني أحب أن أخبرك شيئًا، في أكاكوس الداخل مفقود والخارج مولود، ليس سهلًا أن تصدقي ما أقول خاصة أنك لم تسمعي عن أكاكوس من قبل، ثم إنني أفتخر أنني ليبي وأنني من بلده تحديدًا، فلا تسخري منه.

- لم أسخر منه فأنا أحبه وأحترم سيرته كذلك، لكن هذا لا يمنع أنك خائف.

- أنت لا تعلمين شيئًا مما تقول الأساطير عن تلك المنطقة، ما عملك هنا؟ التصوير فقط؛ لذا لا تعلمين شيئًا.

- لا ليس لدي المزيد، لكن بما أنك من السكان الأصليين للدولة لِمَ لا تخبرنا لِمَ تدور الأساطير حول المنطقة؟

وضع يديه ورأسه على مقود السيارة يخبرهم أن الأساطير القديمة ليست فقط حقيقية، لقد رأى بعينيه أشياء لا يتحملها أحد؛ لذلك كلما همَّ لدعوة أحد لينضم للفريق يُذكِّره بخطورة الموقف، أخبره زين أن «كل ميسر لما خُلق

له» فعليه ألا يقلق، تأففت المصورة من تأخر أحد أفراد الفريق بأنه لا يصح أن يتأخر كل هذا الوقت، تلوم أوسًا أنه جلب شخصًا غير منظم، لم تكن تعلم أن المتأخر هو من جمع كل الطاقم، أجابها أوس:

- الغائب حجته معه؛ لننتظر، ثم مازال أمامنا وقت للحاق الطائرة لاسيما أنها خاصة بنا، ليكن بعلمكِ فارس لا يتأخر، لا بد أنه منشغل بأمر ما.

- يبدو أنه لن يأتي لأنه قال لك بالأمس عن خوفه من المكان ولا يريد المجيء إلى تلك الرحلة لكنه مجبر، لا أدري ما المرعب فيها!

قال أوس:

- هذا المكان محظور على أي إنسان دخوله متعمقًا، لكن البروفيسور عمل جاهدًا طوال سنوات ليحاول الدخول إلى أكاكوس، بعد كل هذا لن يتنازل عن الذهاب مهما كان السبب.

- لكن لِمَ هي محظورة؟ وكيف أخذ تصاريح الدخول؟

- لقد حاول مرارًا أن يدخلها لكن دومًا كانت تقوم الحكومة بمنعه، الآن بعد أن أخذ التصاريح لن يمنعه أحد، خاصة أنه مسؤول أمامهم عن حياة أفراد طاقمه بعد كتابة إقرار بذلك.

أكمل إجابته على سؤالها بخصوص حظر المنطقة:

- لأن المستكشفين يأتون إليها ويعودون خاليين الوفاض خائفين مما رأوه فيها، بل ومنهم من لا يخرج منها ويُفقد أثره تمامًا مهما بحثوا عنه لا يجدونه.

تهكمت عليه المصورة التي لا تصدق ما يقول، لكنه لم يأبه لها تلك المرة، أشاح عنها وجهه مردفًا أن أكاكوس هي مملكة الجان على الأرض، هكذا يسمونها، لكنها لن تصدق ما يقول فهي لم ترَ شيئًا..رن هاتف أوس، كان المتصل فارسًا الذي لا يجد المكان الذي ينتظره فيه الفريق الذاهب إلى الرحلة الاستكشافية، أخبره أوس بمكانهم وأنهم بانتظاره حتى يأتي إليهم، لن يتحركوا من دونه، بعدما أغلق عاد للمصورة مجيبًا:

- أقول ألا تؤمنين بالغيبيات؟ ! الجان هم حقيقة ليسوا من الخيال، ألا تعلمين؟ !

- أعلم، لكنني لم أرَهم؛ فلن أصدق أن أحدًا رأى شيئًا منهم مسبقًا.

ظلا زين وثريا يتجادلان حول وجود الجان على الحقيقة بيننا، لكنها تحاول الانتصار لرأيها، بدأت المناقشة تبدو حادة فطلب منهم أوس أن يهدآ قليلًا وليتحدثان بعد ذلك فيما يتعلق بهذا الموضوع، ومن لا يصدق الآن سيصدق

حينما يرى بعينيه كل شيء؛ فلا يوجد ما يخفى هنا، من يأتي تلك المنطقة يرى ما لا يتخيله عقله أو تظن نفسه أن يحدث له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتحت عائشة باب غرفة جدتها بعد أن أذنت لها الجدة بالدخول فوجدتها جالسة على سجادة الصلاة، كانت قد أنهت صلاة الضحى حينما طرقت الباب، غرفتها مريحة لها طابع خاص، ركن جميل للصلاة به رفوف بيضاء عليها بعض الكتب.

سألتها عائشة:

- جدتي هل انتهيت؟ أبي وأمي ينتظران قدومك لتناول الفطور.

- تعالي يا ابنتي، كيف حالك اليوم؟ أخبريني كيف هي أمك، ألا زالت تبكي في حضن أبيك بالخارج؟ !

- نعم، كالعادة جدتي.

خرجتا من الغرفة سويًّا تمسك الجدة يد عائشة كأنها تستمد منها القوة لتستطيع المشي، وصلتا معًا إلى الشرفةحيث كيرال يسترضي زوجته الباكية، فاقتربت الجدة منهما، فقبَّل ابنها يدها، فسألت:

- لِمَ تبكين يا ابنتي؟ ! هل فعل هذا الرجل شيئًا يضايقك؟

- لا، لم يفعل يا أمي، كعادته يذهب إلى رحلة قد لا يعود منها كما يخبرني.

- وما الجديد في ذلك؟ هذا رجل لا يسبب إلا المتاعب.

قال كيرال:

- متى سببت المتاعب؟ ! سأخرج الآن لأنني لا يجب أن أتأخر.

- تتأخر وما المشكلة؟ الأهم هو نحن-عائلتك- يجب أن تهتم بنا ولنا كما تهتم بتحقيق أهدافك يا بني، متى ستجلس معنا لترى تقدم أولادك ومشكلاتهم التي لا تعلم عنها شيئًا لانشغالك الدائم وزوجتك لا تثقل عليك بها؟ أما آن الأوان لذلك، كيرال؟

- يا أمي الحمد لله حين يُتاح عندي وقت أتكلم معهما، لا تظني أنني لا أعلم شيئًا عنهما، بل تخبرني فاتن كل شيء، ثم تلك الرحلة هامة، ألا تعلمين؟ !

التفتت له أمه دون التفوه بكلمة، كانت نظراتها كافية ليعلم مدى خوفها أن تمرض وهو غير موجود أو يتعب هو في بلد لا يوجد من يرعاه فيه، بدى حبها له واضحًا بعينيها وتريد فقط أن تحظى بما تبقى من عمرها دون قلق أن

تفقده في إحدى رحلاته، لكنه لم يتراجع عن قراره، خرج مودعًا عائلته طالبًا من ابنه عمر أن يهتم بهم في غيابه؛ فهو ينيب عنه كونه رجلًا، تذمرت عائشة من طلبه بعكس الآخر الذي أصبح سعيدًا لظنه أنه سيتحكم بها في غياب أبيه المؤقت.

جالت بخاطر فاتن كلمات أمه، ماذا إن حدث له شيء في ذاك المكان المحظور الذهاب إليه، هل سيكون بمأمن؟ لاحظت أمه شرودها فقالت لها:

- لا تخافي عليه، »كل ميسر لما خُلق له«، إذا كتب الله له شيئًا سيراه، ليس علينا إلا الدعاء؛ إنه يرفع البلاء.

اطمأن قلبها قليلًا فقالت:

- ونِعم بالله يا أمي، حفظكِ الله لنا دومًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نزل إلى الشارع، ركب السيارة التي طلبها مسبقًا لتقله إلى مطار إسطنبول ليلحق بالطائرة المتوجهة إلى طرابلس، بعد أكثر من ساعتين وصل إلى مطار طرابلس ليجلس منتظرًا موعد رحلته إلى مدينة غات بعد ركوبه ظل في الجو مدة ساعة ونصف تقريبًا، كان نائمًا أيقظته مضيفة الطيران تخبره بوصولهم إلى غات، وما إن نزل وضعًا قدميه على أرض المدينة أحس بسعادة لم يرَ مثلها؛ سيحقق حلمه الذي تمناه وانتظره طويلًا، التفت ليبحث عن مرشده الخاص بين الواقفين في المطار، فإذا بعينين من بعيد تراقبه عن كثب، شخص يعلم أنه قادم اليوم، هذا الذي يعيق تحقيق حلمه دومًا، جاءه شاب أسمر طويل القامة ليس بنحيل ولا سمين له عينان عسليتان وشعر مموج بخفة، يبدو عليه قلة النوم، قال مُرحِّبًا به :

- سلام عليك بروفيسور كيرال، كيف حالك؟ أنا أوس رفيقك في سفرتك.

- وعليك السلام يا صديقي، أبحث عنك بين الناس منذ قدومي.

أعتذر عن التأخير، لكنني كنت أنتظر أفراد الطاقم كي نتحرك سريعًا إلى الموقع الذي تود الذهاب إليه أولًا، تأخر أحدهم فطلبت منه أن يسبقنا إلى موقع الطائرة المتفق عليه.

- لابأس، هيا لنذهب إلى الفريق الآن، لنتحرك قبل حلول الليل.

بعد وصولهما لم يجد سوى شخصين، فسأل كيرال عن فارس والذي يعلم المنطقة جيدًا وبقية الفريق فقال:

- أين هو فارس؟ لِمَ لم يأتِ؟ وأين البقية؟

- لقد تواصلت معه قبل أن آتي إليك بروفيسور، فهو من تأخر؛ فطلبت منه انتظارنا هناك في الموقع الخاص بالطائرة التي لم تصل بعد، كذلك لم يجب الطيار على اتصالاتي به، ويؤسفني أنه لم يقبل أحد بالقدوم إلى الرحلة سوى نحن الثلاثة.

رد كيرال مقضبًا حاجبيه:

- كان عليه المجيء كما أخبرته، فهناك الكثير من الأشياء أود معرفتها منه عن طبيعة الحياة هنا؛ فأنا أقرأ فقط، لم أزر المكان من قبل، كنت قد كلفته ببعض المهام لأنه مقيم هنا ومعه المعدات الخاصة بالرحلة.

أخبره أوس أنه مقيم هنا فلا داعٍ للقلق، أن المعدات كاملة معه في سيارته، فاطمئن كيرال وحيا الجميع، ثم قاد أوس السيارة متوجهين إلى فارس ثم أكاكوس، تفحصته ثريا بإعجاب؛ له هيبة طاغية تجبر من أمامه على احترامه فهو شخص مهندم يرجع شعره ذا الخصلات البيضاء للوراء، يرتدي ملابس قماشية مريحة، له عينان رماديتان غائرتان وبشرة قمحية، طول مناسب لحجم جسمه المتوسط، بادلته التحية متعجبة لأنه يتحدث اللغة العربية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عائشة تبحث في أغراضها الخاصة بالتخييم عن حقيبتها المعتاد أخذها في الرحلات فلم تجدها، ذهبت تسأل أمها عنها فأخبرتها أنها لن تخرج اليوم، يكفيها ذهاب أبيها منذ يومين، لا تريد أن يتركها أحد منهم، أخبرتها أنها ستأخذ معها أخاها عمر لكن قابلتها أمها برفضٍ قاطع، تدخلت ثويبة تسأل عائشة:

- إلى أين؟

وحين علمت بزيارتها لمسجد الفاتح([1]). أخبرت فاتن أنها ستذهب معها؛ لأنها تريد الذهاب منذ مدة ولم يتسنَّ لها ذلك، ثم توجهت لعائشة بطلب أن تحافظ على نفسها ولا تغضب أمها في فترة غياب أبيها لأنها تكون شديدة الحساسية في الخوف عليهم حتى يعود.

- كما تريدين يا جدتي، الآن سأذهب لأتجهز وآخذ حقيبتي لأن الكاميرا بها، وأنت بدلي ثيابك كي لا نتأخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تسير السيارة في الصحراء الشاسعة، يرى راكبوها الجبال الراسيات تلك التي خلقها الله لتدل على عظمته- سبحانه- جوارها صخور كبيرة تشبه إنسانًا أو دائرة، والبعض على شكل شجر هائل الحجم، تُرى كيف تشكلت الصخور على تلك الهيئات المختلفة؟ كان كيرال يصور بهاتفه أثناء قيادة أوس الذي لم

يفتر عن ذكر الله كلما رأى شكلًا بديعًا أمامه، رن هاتفه أخذه ليجيب على المتصل فإذا به فارس يطلب النجدة؛ لأنه يفر هاربًا من مطارد له!

- ماذا يحدث؟ أخبرني بمكانك يا فارس؟

يبتلع فارس ريقه بصعوبة ليتحدث هامسًا قائلًا:

- أنقذوني منه، كنت أنتظر في موقع الطائرة، لكنني هربت فهناك من يطاردني، لا أعلم موقعي الآن؛ الصحراء متشابهة يا أوس.

- من يراقبك ولماذا؟

يأتي صوته متقطعًا:

- لا أعلم، هناك عقارب وثعابين أسمع فحيحها يا أوس، أنقذوني بسرعة؛ أنا أخاف الزواحف.

- أرسل لي موقعك كي أستطيع إنقاذك يا صديقي.

انقطع الاتصال بينهما، حاول فارس معاودة الاتصال لكنه لم يستطع، التغطية تكاد تكون منعدمة، كان قد بدأ الليل يسدل ستائره والقمر والنجوم متراصون في شكل بديع، أرسل موقعه لصديقه قبل أن يلدغه هذا العقرب من خلفه، حاول أن يبتعد لكن تلك الأفعى أمامه أعاقت حركته تمامًا فتصلب كالصخر عند رؤيتها أمام ناظريه فقال في نفسه: «يبدو أنها النهاية، لِمَ وافقت على هذه الرحلة؟ ألا أتعلَّم مما حدث لغيري مسبقًا؟ »، انقضت عليه بعد أن تركها مطارده، حاول الهرب ثانية لكنها تمكنت منه فانتفض جسده بسرعة كبيرة، ظلت تنهشه بأنيابها حتى سكن جسده تمامًا ورحلت، علق جسده على صخرة كبيرة راحلًا.

سار أوس بحسب الموقع الذي أرسله له فارس لكنه لم يجده هناك، ظل الطاقم كله يبحث بالمصابيح بلا جدوى حتى وصلت ثريا إلى منطقة وارتطمت بشيء ما فسقطت على الأرض، ما إن توجه الضوء على الشيء الذي اصطدمت به فصرخت بهيستيرية مثبتة عينيها عليه؛ أقبل الجميع مهرولين والتفوا حولها فوجدوا فارسًا معلقًا على صخرة وجهه أزرق شاحب، اقترب أوس منه ليرى نبضه لكنه كان منتهيًا بالفعل، جسده بارد كالثلج يبدو أنه اختنق حتى مات، أنياب الأفعى على بعض مناطق جسده لتظهر ما حدث له، دماء لزجة على رقبته وذراعيه، حاول أوس البحث عن شيء يدل على من فعل به هذا لكنه لم يجد.

وقف كيرال سائلًا وسط ذهول منهم:

- هل معكم خيام لنبيت هنا الليلة؟

قال أوس:

- نعم، إنها في السيارة.

كانت متوجسة، عيناها تدوران بخوف شديد مما قد تراه في تلك الرحلة، تخبرهم أنها رأت الجثة تتنفس، طلب منها كيرال البقاء في السيارة حتى الصباح لأنهم لن يتركوا جثة صديقهم في الصحراء دون دفن.

فجأة سمعوا صوتًا تقشعر منه الأبدان ترتجف منه الأرواح؛ ارتعدت قلوبهم وأوصالهم، لم يكن لديهم سوى أن يذكروا الله- عز وجل- كي يحميهم ممن يقطن في تلك المنطقة، دخلت ثريا السيارة مغلقة على نفسها الأبواب جيدًا بعد أن أخذوا كل ما يحتاجون من خيام، أنزلوا فارسًا وغطوا جثمانه حتى يحل الصباح، لكن كانت تجول في خاطرهم أفكار حول من قد يفعل به ذلك! منعلم أنه قادم إلى غات اليوم؟ ! نام الجميع حتى سطعت أشعة الشمس في صحراء غات معلنة بداية يوم جديد، استيقظ أوس لما أشرقت الشمس على وجهه وكانت الصفعة التي أخذها قاتلة، ظل يتلفت حوله لم يجد سوى الرمال، البروفيسور وزين لا زالا نائمين جواره، لكن اختفت السيارة، الفتاة، وجسد فارس الذي وجدوه بالأمس!

فتح أوس هاتفه كي ينظر جيدًا لصور فارس الذي التقطها بالأمس وأرسلها إلى صديقه ضابط الشرطة ليبلغه عن وقوع جريمة في مدينة غات، فوجد الصور كما هي فأجرى اتصالًا هاتفيًّا به وأخبره بما حدث تاركًا له رقم السيارة ليحاولوا العثور عليها وعلى الفتاة.

في مكان حالك مخيف لا تسمع فيه سوى عواء ذئاب وفحيح أفاعٍ، هلعت ثريا لمَّا رأته يقف أمامها، لم يسعها فعل شيء سوى الصراخ بهيستيريةٍ مطلقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني
حوادث مريبة

صراخ مفزع يشق سكون الليل تخشى منه النفوس، تهرع منه القلوب التي تهاب العتمة لما قد يحدث هنا في جبال أكاكوس مملكة الجان على الأرض.

استيقظ تاج الدين فزعًا من الصوت الذي سمعه، قام مسرعًا إلى خارج غرفته وجد أمه تبكي جالسة على الأرض؛ نزل إلى جوارها يمسح على رأسها:

- ما بك يا أمي؟ لِمَ تصرخين الآن؟ هل رأيت كابوسًا مزعجًا؟

- رأيت أوسًا في مأزق، وجدته في رؤيتي بمكان مظلم يبدو كأنه صحراء مخيفة.

لم تكمل كلامها إلا بأنه شيءٌ مفزع.

- هيا قومي إذًا نصلي ركعتين طالما استيقظنا قبل الفجر، ما رأيكِ أن أعلمكِ شيئًا جديدًا من الأذكار إذا فزعتِ من رؤيا تقولينه؛ ليطمئن قلبك؟

نظرت إليه خائفة، لم تعد تشعر بالأمان منذ أن فقدت أباه وأخته في حادث غريب، غاب عقلها، لم تتحمل الأمر، منذ ذلك الوقت تصرخ كل فترة ليلًا فيُفزع عليها، بدلًا من أن تهتم به هو من يرعاها، أمسك يدها لتقوم، توجه بها إلى الحمام وضَّأها بيديه ثم أخذها لغرفتها، ألبسها خمارها وجوربًا في قدميها، أخبرها أنه سيحضر سجاد الصلاة ليصليا معًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتلفت ثريا حولها خائفة تترقب ما سيحدث، تقود السيارة التي أُجبرت على قيادتها من قِبل ذلك الغريب الذي يصوب سلاحًا إلى ظهرها، كلما نظرت للخلف يغرسه مهددًا إياها بالموت تقول في نفسها: «بأي رحلة تورطت، أتمنى أن يكونوا قد وجدوا رسالتي التي كتبتها قبل رحيلي من هناك».

يفكرون معًا فيما حدث أثناء نومهم، اختفاء جثة صديقهم الذي وجدوه بالأمس مقتولًا هنا، أخبرهم أوس أن يبحثوا معه عن أي أثر يدل على تحركات السيارة أثناء نومهم، لكن لا بد أن الرياح طمست الآثار من على الرمال، تذكر زين أن ثريا عندما يفترقون للبحث عن شيء تترك أثرًا خلفها ليدل على مكانها حتى لا يفقدوها أثناء الرحلات الميدانية؛ لذهابها معه قبل ذلك، رَبَّت أوس و كيرال على كتفي زين يلومانه فأخبرهما أنه نسي، قال أحدهم:

- يبدو أن أحدًا أراد السرقة، ولأننا قريبون من الطوارق يمكن أن يكون منهم.

فاجأهم زين بإيجاد رسالة مربوطة في حجر منها، فأخذها أوس فتحها ليقرأ ما كُتب فيها بصوت عالٍ: «هناك ملثم يتحدث التركية ومعه شخص عربي يتحدث بلغة غريبة لم أفهمها، أنقذوني».

اندهش كيرال فقال:

- يبدو أن أحدهم علم بقدومي إلى هنا ثم جاء خلفي، سنبدأ الرحلة لأنه يريد اللعب معنا فقط.

قال زين:

- ماذا عن ثريا، بروفيسور، وجثة فارس التي اختفت؟

قال أوس:

- معهما ثريا لكنها لم تذكر شيئًا عن فارس، سنبحث جميعًا عن جثته، لابد أن يكون أحد خلف الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دقت عائشة باب غرفة جدتها فوجدتها تجهزت للخروج معًا فسألتها:

- جدتي، كيف تقابل أبي مع أمي؟

- تلك قصة طويلة يا ابنتي، لكن سأخبرك أمرًا لا أريد أن تعرفه أمك، اتفقنا؟

أخبرتها أن جدها كان يعمل في مجال السياحة حينما تقابل أبوها مع أمها، حتى فُقد في أحد الرحلات بعد زواجهما بعدة سنوات.دخلت فاتن عليهما فجأة فرأت تحمُّس عائشة الزائد، تعجبت للأمر لكنها أخبرتهما أنها ذاهبة مع عمر إلى التمرين، وأن الجامعة اتصلت لتخبرها أن بروفيسور إيزل سافر بصورة مفاجئة، وستكمل عائشة بحثها مع بروفيسور سيمان بدلًا منه، غضبت ابنتها لأنهم يجب أن يتحدثوا إليها، فأردفت أمها أنهم حاولوا الاتصال بها لكنهم لم ينجحوا؛ لذا اتصلوا بالمنزل.

- كيف لا تجعلينني مَن يجيب؟ ومن سيمان هذا؟ ! لا أعلمه، متى جاء؟ كيف يسافر بروفيسور إيزل؟ كنت على وشك مناقشة الرسالة معه!يا ربي، كيف يحدث هذا فجأة؟

طلبت منها جدتها أن تهدأ وتفكر فيما سيحدث إن تغير البروفيسور، لن تنتهي الدنيا بتغير شخص ما فجأة، أخبرتها حفيدتها أنها ستتصل بالجامعة لترى ماذا يحدث في أمر البحث، كانت قلقة تخشى أن تعيد ما قامت به سابقًا، طمأنتها بأنه قدرٌ لتهوِّن عليها مردفة أن الله لن يضيع مجهودها سُدًى، حاولت أن تهدأ طلبت من جدتها أن تزورا المسجد ثم تذهب إلى الجامعة لاحقًا، لكن الجدة

رفضت ذلك متعللة بوجوب الذهاب إلى الجامعة أولًا، وافقت على اقتراحها، فطلبت منها أن يلحقا بأمها كي تأخذهما في طريقها.

هرولت عائشة تصيح:

- انتظري يا أمي، لا ترحلي، سنأتي معكِ، لن نركب الحافلة، عليكِ أن تأخذينا إلى الجامعة.

خرجوا جميعًا ركبوا السيارة، كان هناك من تم وضعه لمراقبتهم فلاحظ خروجهم قائلًا في نفسه: «هذه فرصتي للدخول»، بعد رحليهم دخل رجال مسلحون منزلهم يبحثون عن شيء ما، يتفقدون الغرف بحذر حتى وصلوا إلى مكتب كيرال، أنزلوا كل الكتب من على الرفوف البيضاء ألقوها على الأرض دون معرفة قيمة كل كتاب احتفظ به هنا في مكتبته، بعد ذلك وجد أحد الرجال خريطة قديمة مكتوب عليها باللغة العربية (كاف الجنون)في كتاب على مكتبه الذي يتوسط الغرفة؛ مزق الأوراق الخاصة بها ليأخذها، وابتسم ثغره كأنه حصل على خريطة كنز، لا يعلم أنها خارطة نهايته. تركوا الغرفة غير مرتبة ثم هموا للرحيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يسيرون في الصحراء بلا جدوى إلى أن وصلوا إلى منطقة بها صخور كثيرة عليها نقوش أثرية تعود إلى عشرين ألف سنة كما قيل، وقف البروفيسور ليلتقط بعض الصور بالكاميرا خاصته فقال له زين:

- ما قصة تلك الرسوم التي تلتقط صورها أيها البروفيسور؟

أخبره كيرال يشرح له:

- إنها نقوش حيوانات وطيور قيل أنها تدل على الحياة في تلك الفترة من الزمن، وكانت تلك الحضارة زراعية أثناء تلك المدة التي تم نقش تلك الرسومات فيها، تقول الأساطير أن بعض القبائل قديمًا كانوا يتخذون تلك النقوش آلهة في فترة ما، معظم الحضارات القديمة تعددت فيها الآلهة.

أردف أوس معقِّبًا على كلام كيرال أن هناك الكثير من الزوار يأتون إلى أكاكوس ولا يستطيعون الخروج منها، حاول زين فهم الأمر لكن أرعبه أوس بقوله أنهم يتعرضون لحوادث مريبة أو للاختفاء دون أثر، وجد كيرال الكاميرا الخاصة بالمصورة فحملها، علموا أنهم يسيرون على الطريق الصحيح، طلب زين من البروفيسور إخباره المزيد عن تلك النقوش فوافق على ذلك كي يهوِّن طول المسافة التي يقطعونها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رن هاتف عائشة من رقم مجهول، تنبهت جدتها لذلك أثناء إخراج عائشة الهاتف من حقيبتها، ردت على المتصل كان البروفيسور، أخبرها أنه ينتظرها في مكتبه كي يحدد مسار رسالتها بعد أن أصبحت تحت إشرافه، كانت مغتاظة من ذلك الأمر فأخبرتها أمها أن تهدأ قليلًا كي لا تضيع أبحاثها السابقة.

أوقفت فاتن السيارة مخبرة ابنتها أن تنزل لمقابلة البروفيسور، طالبة من جدتها أن تبقى معها لتأخذها هي إلى المسجد كما تريد عقب التمرين؛ كي لا تضيع تلك المغرورة فرصة إنهاء رسالتها بسبب غضبها الزائد عن حده، نزلت عائشة أوقفت سيارة أجرة وأخبرت السائق أن يأخذها إلى جامعة أتاتورك([2]) لمقابلة البروفيسور الجديد، ما إن وصلت حتى ذهبت إلى مكتبه كما أخبرها على الهاتف، ثم دخلت

بعد دق الباب تسأل:

- أين البروفيسور سيمان فضلًا؟

التفت إليها سيمان يخبرها أنه هو المشرف الجديد على رسالتها، هناك بعض النقاط يود التحدث معها بخصوصها.

ظلت معلقة بصرها عليه تحدثها نفسها كيف ذلك؟ يبدو في أواخر الثلاثينات.. كيف يكون البروفيسور؟ اعتادت أن يكون رجلًا عجوزًا، أما هذا شاب يبدو عليه الاهتمام بنفسه، شعره الناعم، بشرته البيضاء، ويرتدي ملابس رسمية.. ظلت شاردة تفكر فيما ستقول فقاطع تفكيرها قائلًا:

أريد منكِ رحلة ميدانية إلى سيفار، إذا أمكنكِ سأكون معكِ فيها.

أعتذر، لكن والديَّ سيرفضان.

- أخبريهما أنني سأكون معكِ ومعنا طاقم كامل.

تحمَّست قليلًا لأنها تود السفر إلى سيفار، ثم تذكرت أن أمها سترفض فأخبرته بذلك، حاول إقناعها أن تلك فرصتها الوحيدة لعمل تلك الرحلة الميدانية إلى هناك معه الأسبوع المقبل.

شردت تفكر فيما يقول، تعلم يقينًا رفض أمها السابق، لكنها تعجبت من كونه متأكدًا من سفرها معه في القريب إلى هناك، سألته من أين له بالثقة؟ أخبرها أنه يعلم شغف أبيها ولابد أنها مثله.

خرجت يملأ عقلها الحماس تاركة حقيبتها على مكتبه دون أن تنتبه، أثناء طريقها إلى المنزل اتصلت بخالها عبد القادر تخبره برحلتها الهامة إلى الجزائر لكن أمها ستعيق ذلك، وعليه أن يساعدها، فأخبرها أنه سيأتي إلى

إسطنبول كي يأخذها حتى لا تمانع أمها، أغلقت معه المكالمة تقول في نفسها:

- الحمد لله، اقتنع خالي سريعًا، ولكن كيف سأقنع أمي؟

كان سعيدًا لأن رفيقه يسير بحسب ما اتفقا عليه ليمهد له السفر إلى سيفار، لم تكن تعلم عائشة أن خالها في إسطنبول لأن لديه عملًا هامًّا، اتصل على سيمان يخبره أنه سيعطيه التصاريح لدخول سيفار بعد وصوله إلى الجزائر مع ابنة أخته.

استقلت سيارة أجرة لتذهب إلى المنزل فوجدت الباب مفتوحًا على مصراعيه، دخلت تبحث فإذا بكل شيء في

مكانه لكن مكتب أبيها كله على الأرض، قالت تتلفت يمينًا ويسارًا:

- ماذا حدث هنا؟

اتصلت بأمها تخبرها أن هناك لصًّا دخل المنزل، حين عادت وجدت الباب مفتوحًا، غرفة أبيها غير مرتبة، وطلبت منها العودة بسرعة لأنها خائفة.

أغلقت معها لتتصل بالشرطة، لكن حينما التفتت وجدت رجلًا ملثمًا يرفع مسدسًا نحوها، ابتلعت ريقها بصعوبة بالغة، كان صدرها يعلو ويهبط من شدة خوفها، لم تستطع التنفس أكثر من ذلك كما أنها لم تستطع الحراك فسقطت أرضًا، لكن طلقة خرجت من مسدسه لحظة سقوطها جعلت من يقف خارج المنزل يدخل مسرعًا باحثًا عن مصدر الصوت في ترقب شديد، وجد شخصين يتجادلان فيما بينهما ماذا سيفعلان بعائشة؟ وآخر يحمل أوراقًا يبدو أنه أخذها من المكتب يضعها في حقيبة، فقام بضرب الشخص الذي يحمل المسدس على رأسه لقربه من الباب، ثم أزاح السلاح بقدمه بعيدًا لأنه كان يضرب الآخر حتى نزفت أنفه الدماء وسقط أرضًا فاقدًا وعيه، بينما هرب الآخرون من النافذة، اتصل بالشرطة ذاهبًا ليرى عائشة، لم يكن على جسدها آثار دماء، فحمد الله ثم حاول إفاقتها، ظل يتحدث إليها لكن بلا جدوى؛ خرج من الغرفة جلب ماء وقام بنثر بعضه على وجهها، بعد دقائق انتفضت ترتجف تسأل:

- أين أنا؟ ماذا حدث؟

- الحمد لله أنتِ بخير، أنتِ في منزلكِ، كان يوجد لصوص هرب اثنان من النافذة وبقي واحد فاقدًا وعيه.

ردت عليه تتنفس بصعوبة؛ فهي تحتاج إلى دوائها، أشارت له أن يحضر حقيبتها فجلبها، أخرجت منها علبة استنشقت منها بعض الرذاذ، فعلم أنها

تعاني حساسية صدر مزمنة، تركها حتى استطاعت التحدث، سألته كيف علم عنوانها ولِمَ جاء، فأخبرها أنها نسيت حقيبة قبل خروجها، وهو يعلم منزلهم سابقًا لذلك جلبها في طريق عودته لمنزله القريب منهم، سألته ماذا سيفعلان باللص؟ طلب منها إحضار أي شيء يقيده به حتى تأتي الشرطة.

جلبت له رباطًا ضعيفًا فرفض مخبرها أن تحضر حبلًا قويًّا؛ فذلك لن يجدي نفعًا، جادلته في ذلك فصمم على طلبه، وأمرها أن تخرج من الغرفة، ظل واقفًا ينتظر قدوم الشرطة إليه، ينظر إليها بغضب وهي جالسة على الأريكة، أما هو مازال على قدميه، خرج ليجلس بجوار الغرفة المحتجز بها المتسلل، كان بجانبه منضدة صغيرة عليها كتاب، مد يديه ليمسكه فمنعته قائلة:

- اتركه من يدك. هذا الكتاب لأبي، لقد مزقوا منه بعض الأوراق، وجدته على باب الغرفة قبل أن أراهم فوضعته هنا.

- ألديكِ مانع أن أرى محتواه؟ فاسمه يجذبني لم أسمع به من قبل!

- ذلك لأن أبي لم يطبعه بعد، يمكنك رؤيته لكن لا تخبر به أحدًا.

طلب منها كأسًا من الماء لأنه عطشان، قامت لتجلبه له فأخذ بعض الأوراق الخاصة برحلته من كتاب كيرال وخبأها في ملابسه، لما جلبت له الكأس أعطاها الكتاب لتخبئه لأهميته عند أبيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ساعات متواصلة من السير في الصحراء، الحرارة القاتلة أتعبتهم، يحمل كيرال معه خريطة على هاتفه يسير حسب اتجاهاتها محاولًا العثور على ثريا أو جثة فارس، تعب زين من السير؛ طلب منهما أن يحصل على بعض الراحة مترنِّحًا لتعبه الشديد، فقد تعرق جسده كثيرًا ولم يعد يقوى على السير، فألقى جسده على الرمال الساخنة، نظر أوس إليه وجسده السمين، أراد إخباره أن عليه السير كي يخسر بعض الوزن فقدمه حتمًا لا تتحمل هذه الشحوم فوقها، لكنه لم ينطقها كي لا يحرجه، اكتفى بنظراته المتفحصة لجسده الذي يتصبب عرقًا من كل مكان رغم اعتدال الطقس، لاحظ زين نظرات أوس له فطلب من البروفيسور أن يذكر له معلومات عن جبال أكاكوس، أخبره كيرال بظنه فيه أنه لا يهتم بتاريخ أي شيء، فقال له:

- بالعكس بروفيسور، أنا أحب التعلم كثيرًا خاصة أن تلك المنطقة ساحرة حقًّا كأنها قطعة من الجنة.

ضيَّق أوس عينيه قائلًا:

- أليست تلك المنطقة التي أردت الرحيل منها منذ يومين؟

- نعم هي، لكنني الآن اعتدت عليها قليلًا وسُحرت بها، فأريد بعد إذنك أوس أن أتعرف عليها أكثر.

- لك أن تعرف، لكن لا تتعمق كثيرًا في المعرفة عن أكاكوس يا زين.

طلب منهما كيرال أن يهدءا قليلًا؛ لأنه يريد أن يحظى ببعض الهدوء، بالإضافة إلى كونهم لم يجتمعوا من أجل الجدال، اعتذرا منه، أردف أوس أنهم لا يسمعون إلا صوت صفير الرياح فقط، ما إن ابتسم الآخر حتى استشاط كيرال غضبًا، فاعتذر زين طالبًا منه أن يخبره عن تاريخ المنطقة،

فقال له:

- سأخبرك إن أصبحتما هادئين، ليكن بعلمك يا زين سنكمل السير حتى نجد الفتاة، لن تنام الآن.

صمتا وجلسا ينظران إلى البروفيسور بإنصات شديد، فبدأ قائلًا:

- تعود الحضارة في تلك المنطقة إلى ٢٠٠٠٠ عامًا تقريبًا.

وفي عام 1958 وُجدت هنا مومياء داخل كهف صخري صغير يقع في وادي تشوينت في جبال أكاكوس جنوب غرب ليبيا، أطلق عليها مومياء (وان موهي جاج) أو المومياء السوداء، عثرت عليها بعثة إيطالية، وسبَّب ذلك جدلًا واسعًا؛ لأن عمرها المقدر ٥٦٠٠ عامًا أي تسبق الحضارة المصرية بنحو ١٥٠٠ عامًا، وهذا يعني أن الحضارة الليبية علمت التحنيط قبل الحضارة المصرية القديمة.

سأل زين:

- هل اقتربنا من المكان الذي وُجدت فيه تلك المومياء؟ أريد رؤيتها.

- مازال أمامنا القليل، لكنك تعبت، يجب أن تخسر بعض الوزن كي لا تُرهق بسرعة هكذا، أنت ما زلت صغير السن والسمنة تسبب أمراضًا شتى، لن تستطيع رؤية المومياء؛ فهي بمتحف (السرايا الحمراء) بطرابلس، بيننا مسافة طويلة لا يمكننا الوصول إليها سيرًا على الأقدام.

شعر زين بالإحراج مردفًا أنه حاول كثيرًا لكنه لم يفلح بسبب حبه للطعام، ذكر أنه جائع الآن، ضحك أوس على كلامه، فقال كيرال وهو ينظر إلى خريطة بهاتفه:

- لقد اقتربنا من فندق يظهر أمامي، سنرتاح هناك ونتناول الطعام جميعًا إن شاء الله، هل لي أن أعلم من رشحك لتلك الرحلة يا زين؟ ففي مثل حالتك تلك لم تكن تصلح لتأتي.

- حدثني المرحوم فارس كي آتي معكم في تلك الرحلة، وياليته لم يحدثني.

قال له أوس:

- لا تقل «المرحوم»، هل علمت بأنه مرحوم؟ أتعلم الغيب يا زين؟ ! ولماذا ليته لم يخبرك؟ ! حينها لم تكن لتتعرف علينا.

- أقول لأنه مات، هكذا اعتدنا أن نقول.

- لا، بل عليك أن تقول «رحمه الله»، هكذا تعلم أخي تاج الدين في دراسة الشريعة.

التفت إليهما كيرال قائلًا:

- ماذا تفعلان؟ ! ذكرتماني بأبنائي، تتجادلان مثلهما تمامًا، هيا لنكمل السير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنظر جوارها تبحث عن مخرج للكهف العالقة به مع هؤلاء الغرباء، أوقف قلبها صوت فحيح بالخارج؛ ظلت تؤنب نفسها على المجيء لتلك الرحلة، تمنت لو تعود إلى بلدها في أقرب وقت، تقدمت خطوة للأمام وجدت ملثمًا يحمل أفعى على كتفيه محملقًا في وجهها قائلًا بصوت هامس كفحيح الأفعى التي يحملها:

هل تودين الذهاب إلى مكان ما أيتها الماكرة؟ عندي لكِ مفاجأة صغيرة، أرأيتِ تلك الأفعى؟ إنها جائعة، ما رأيكِ أن أطعمكِ لها بدلًا من الفئران التي تتغذى عليها؟

عادت إلى الخلف لخوفها من الثعابين والظلام الذي بدأ يسود الكهف الحبيسة فيه مع هذين الغريبين، أخذت تعود إلى الوراء حتى اصطدمت بشيء ما فسقطت أرضًا، فإذا به جثة إنسانٍ مشوهة صرخت بصوت عالٍ فتضايق، فأمسك شعرها يلفه على يديه تاركًا الأفعى تتغذى على هذه الجثة الملقاة أمام عينيها قائلًا:

- إن حاولتِ الخروج سيكون مصيركِ مثل هذا الرجل الميت، سأجعلكِ طعامًا للأفاعي والحيوانات المفترسة هنا، قبل أن أجعل رجالي يتناوبون عليكِ، تفهمين ما أعنيه جيدًا، فلتبقِ بمكانكِ وإلا سأدعهم يفعلون ما يريدون بكِ ثم يتركونكِ للحيات في تلك الصحراء الشاسعة، أفهمتِ؟

أفلت شعرها من يده فعادت إلى مكانها وهزت رأسها في صمت تام وخوف مما قد يحدث لها في هذا المكان، لم تقل في نفسها شيئًا سوى: «أنقذني يا رب من هنا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلت فاتن والجدة ومعهما عمر إلى المنزل، فدخلوا مسرعين وجدوا الشرطة بالداخل وعائشة تقف معهم، قالت الجدة:

- ماذا حدث يا ابنتي؟ هل أنتِ بخير، عائشة؟

- لا تخافي يا جدتي، أنا بخير. أنقذني السيد سيمان من اللصوص.

ذهبت فاتن للتحدث إلى ضابط الشرطة لتفهم ما حدث، أخبرها بما قالت عائشة وسيمان وحديثهما عن الخريطة التي كانوا يبحثون عنها، تفاجأت بما قيل وبدا عليها التفكير، مَن يدخل المنزل من أجل خريطة؟ ! وما أهميتها؟ !

توجهت للضابط بسؤال آخر؛ لتعرف ما يستوجب فعله الآن، فأخبرها أنه سيأخذه للاستجواب في قسم الشرطة، رحل الضابط بعد أن أخبرهم أنه سيتصل بهم عقب انتهاء التحقيقات، شكرت الجدة سيمان على إنقاذه لعائشة طالبة منه أن يبقى حتى الغداء، لكن أمها سألته عن سبب وجوده في منزلها، فقص عليها ما حدث وأن ابنتها نسيت حقيبتها فجلبها إلى هنا.

تنظر عائشة إليهما بغرابة شديدة، تفكر في شرود تام كيف تعرفه أمها وهو يعرفها أيضًا، ماذا يحدث هنا؟ ما الشيء الذي تخفيه عنها أمها؟ تحرك سيمان ليخرج من المنزل، فأخبرته ثويبة أن عليه البقاء لأن هناك أسئلة عند حفيدتها تحتاج إلى إجابة، أردفت عائشة أنها تريد معرفة كيف يعرفون بعضهم وماذا يخفون عنها؟ جلس يخبرها أنه كان طالبًا لدى أبيها وسافر معه في إحدى المرات إلى سيفار، حيث تعرف على أمها لوجودها مع أبيها في تلك الرحلة، ثم طلب منهما أن تسافر عائشة معه إلى سيفار لأن هذا مهم لها، وهو يعلم مدى شعورها جيدًا أن ترسل ابنتها حيث فقدت أباها، فرفضت قائلة:

- لن تجبرني على سفر ابنتي مهما حدث.

- لن أفعل، لكنها مثل أبيها، هي من ستجبركِ على جعلها تسافر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يسير زين ببطء شديد جدًّا متعبًا عطشًا، فسقط على الأرض متأوهًا يصرخ:

- كفى، لقد تعبت، والله لن أتحرك خطوة واحدة.

سمع كيرال صوت نحيب عالٍ يقترب منهم؛ أشار إلى أوس ليجعل زينًا يصمت قليلًا، تقدم كيرال بحذر شديد إلى المكان الذي يسمع منه الصوت، فوجد مجموعة من الرجال المسلحين أمام مدخل كهف صخري قديم وسيارتهم تقف على يسار مدخل الكهف، تنفس الصعداء وحمد ربه، اقترب من أوس قائلًا له:

- لقد وجدنا ثريا والسيارة، لكن لدينا رفقة هناك، تعال انظر.

نظر أوس إلى المكان، قام بعَدِّ الرجال فقال:

- خمسة رجال بالخارج، لابد أن هناك المزيد بالداخل، بروفيسور.

أومأ كيرال برأسه، ثم وضع يده في الحقيبة وأخرج مجموعة من الديناميت؛ ليحدث انفجارًا صغيرًا كي يبعد الرجال عن السيارة، تعجب أوس وزين مما يريد فعله، يخبرانه أنهم قد يؤذون الفتاة وتتعرض حياتها للخطر، طمأنهما، لكن قال زين هامسًا لأوس أن البروفيسور لا يهمه حياة أي شخص منهم، غضب أوس معللًا أنه يحاول إلهاءهم كي نأخذها ونهرب، لكنني لست مطمئنًا لتلك التجربة التي يفعلها، سينفجر المكان إن فعل.

لم يلتفت إليهما كيرال، كان واثقًا مما يفعله جيدًا كأنه فعله سابقًا مرارًا، حينما أشعل الفتيل ألقى الديناميت أمام الرجال، فتطايروا من شدة الانفجار الذي وقع، سقطت بعض الحجارة أمام مدخل الكهف، خرج رجل ملثم من الداخل ليرى ماذا يحدث؛ فوجد رجاله جميعًا على الأرض، فابتسم بمكرٍ وظل يتلفت حوله ليرى من فعل ذلك، لكنه لم يرَ أحدًا فنادى بصوت عالٍ قائلًا:

- أين أنت أيها الجبان؟ اخرج، واجهني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث
ماضٍ مؤلم

ننظر إلى الماضي بعين باكية بقدر المعاناة التي تعرضنا إليها، فكيف إن كان به فقد مؤلم لأشخاص غالية على قلوبنا؟

كهف به فجوات ومغارات عديدة؛ من يدخل فيه لا يعرف هل سيخرج من المكان الصحيح أم سيجد ما يجعله يلقى حتفه سواء بداخله أو بعد خروجه إلى مكان مبهم.

حاول أوس التقدم، عروقه تغلي خوفًا على الفتاة الأسيرة بين أيديهم، منعه كيرال هامسًا له:

- علينا أن نعرف هل هو وحده أم مازال معه رجال آخرون، لن يساعدنا زين في شيء إلا إن كان يستطيع قيادة السيارة، لن يستطع مواجهة أحدًا، ألا ترى وضعه؟ !

قال أوس:

- لكن يا سيدي الفتاة لديهم، أخشى أن يصيبها مكروه، هي أمانتنا.

ظل الملثم ينظر إلى المكان المتهدم حوله، الرجال مصابون يتأوهون، يراقب المكان ليرى أي شيء بلا جدوى، دخل إلى الكهف، فتحرك كيرال وأوس مخبرين زينًا أن يذهب إلى السيارة ليقودها عقب إحضار الفتاة مباشرة، حملا أسلحة من الملقاة على الأرض بجوار الرجال؛ ليبحثا عن رفيقتهم بالداخل، ازداد صوت الصراخ، فأسرعا وجداها مقيدة، معصوبة العينين، تنزف دمًا من فمها وأنفها، يبدو أنها تلقت لكمة قوية في وجهها، منزوع عنها حجابها وممزق بعض من ملابسها العلوية، بجوارها أفعى كبيرة لاحظها كيرال، فألقى عليها حجرًا كي تبتعد عنها لكنها لم تتحرك، طلب أوس منه الانتظار قليلًا فصوب سلاحه نحوها وأطلق عليها رصاصة واحدة فأصابها، متوجهًا إلى ثريا فك قيدها ونزع الرباط من على عينيها، خلع معطفه وعصابة رأسه وأعطاهما لها لترتديهما فسألها:

- هل قام أحد بإيذائكِ؟ أخبريني؟

كان جسدها ينتفض، ترتجف خوفًا مما حدث مردفة:

- لا، أنا بخير، أخرجني من هنا يا أوس، أريد العودة إلى المنزل.

نظر لها أو سيتفحص وجهها الأبيض الشاحب، هل بها أي إصابة؟ فسألها من لكمها أسفل عينيها وفمها هكذا؟ فأخبرته أنه رجل ملثم يتحدث التركية خلع حجابها منذ أن اختُطفت، أما الذي كان هنا هو مَن قطع ثيابها منذ قليل وربط عينيها بها، لكن لم يمسسها أحد، وهي فقط تريد الخروج من هنا، تنفس أوس الصعداء كأنه أزاح همًّا من فوق صدره، فسألها أين الرجل الذي كان هنا؟ أخبرته أنها لا تعلم، لكن كان هناك مخرج آخر لهذا الكهف رأته بالأمس.

تلفت أوس حوله فوجد جثة على الأرض، لم يجد سوى عقرب عليها بجوار الأفعى التي قتلها بنفسه، نادى على كيرال فلم يجبه، فقال في نفسه: «أين ذهب؟ لقد كان هنا.»، أخبر ثريا أن عليهما الخروج لأن زينًا ينتظر بالخارج، فسألته هل تخلصوا من بقية الرجال؟ طمأنها، ثم ذهبا معًا إلى السيارة.

يسير كيرال داخل الكهف ينظر إلى الرسومات الموجودة بالداخل، الكتابات القديمة على الجدران، التجاويف الداخلية للكهف، يصور كل ما يراه مهمًّا أثناء سيره بكاميرا الفيديو خاصته حتى وجد مدخلًا آخرَ للكهف يؤدي إلى واحة (مافو)([3])، جميلة كأنها قطعة من الجنة على الأرض، سُحر بها فأخذ يصورها، ثم تتبع آثار الأقدام وجدها تصل إلى بحيرة حولها نخيل وشجيرات، لكنه لم يرَ أحدًا، شَعر أن هناك مَن يضلله، ظل يتفقد آثار الأقدام على الأرض حتى وجد شخصين ملثمين فأطلق أحدهما عليه سهمًا مخدرًا؛ فسقط أرضًا مرتطمًا بصخرة فجُرِحت رأسه.

وصلا أوس وثريا إلى زين، بدا عليه التعب الشديد، سأله أوس:

- هل أنت بخير؟

- نعم، أنا بخير، كيف حالك؟ هل أنت بخير؟

شعرت ثريا أنه ليس على ما يُرام، نظرت إليه تتفحصه ثم التفتت لأوس وجدته يتلفت باحثًا حوله عن البروفيسور ينادي عليه، لكنه لم يأتِ، فقال:

- كان ينقصنا أن نفقد أحدًا آخر الآن، نفذت بطارية هاتفي؛ لن أستطيع التوصل إليه الآن، سأعود للكهف أرى المخرج الذي أخبرتِني به.

سقط فجأة زين على مقود السيارة سابحًا في دماء من جانبه الأيسر لم يلاحظه إلا ثريا لحظة سقوطه للأمام، فصرخت:

- لقد مات زين، لقد مات هو الآخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقف عائشة أمام أمها وجدتها معها أخوها لا يفهمان ماذا يحدث! أشارت لهما الجدة بالجلوس فاستجابا لأمرها جالسين، ثم تحدثت عائشة قائلة:

- أريد أن أفهم كيف تعرفين سيمان؟ وماذا حدث لجدي؟

نظرت فاتن إلى ثويبة بحزن شديد ثم تنهدت قائلة:

- كان جدك يعمل مرشدًا سياحيًّا يا ابنتي، وكنت قد ذهبت معه ذات مرة إلى رحلة مع مجموعة من السياح كان من بينهم كيرال والدك، كنت حينها صغيرة، تعرفت على أبيك فيها وطلبني من أبي، ثم سرعان ما تزوجنا هناك في الجزائر، ظللت هناك ستة أشهر ثم سافرت إلى تركيا لأنني كنت قد حملت بك، وبعد ولادتك جاء أبي إلى هنا في إسطنبول مكث معنا قليلًا من الأيام، ثم سافر ثانية وأنا أكملت دراستي في الجيولوجيا هنا بنفس جامعتك؛ لذلك أعرف سيمان وبعض الأساتذة هناك لأنني عملت أستاذة بعض الوقت قبل ولادة عمر.

أكملت فاتن القصة التي أخفتها عنهما فقالت:

- بعد ولادة عمر بسنتين ونصف طلب كيرال من جدك أن يجهز له رحلة إلى سيفار؛ لأنه لم يستطع أن يحضر التراخيص اللازمة لأن الدخول إليها محظور، خاصة بعد فشله في رحلة سابقة، أخبره جدك أن ذلك سيستغرق بضعة شهور، وقد حدث ما كنت أخشاه..أحضر جدك التراخيص اللازمة بعد ثلاثة أشهر واستعد أبوك للسفر إلى الجزائر، ذهبت معه لأرى أبي وأخي، لكنني لم أكن أعرف أن هذه الفرصة الأخيرة التي أجلس فيها مع أبي؛ لقد فقدنا أثره في سيفار تلك المرة، لم يستطع كيرال ولا عبد القادر إيجاده، ومنذ ذلك الحين لم أذهب إلى الجزائر وأرفض ذهاب أحد منكم إلى هناك.

- لكنني سأذهب إلى الجزائر لأجل بحثي، لن أكون كما تريدين أنتِ يا أمي، وهذا قرار قطعي لن أتراجع فيه.

استأذنت منهم ثويبة لتتوضأ مشيرة إليهم أن يتريثوا بعض الشيء؛ فكل يأخذ نصيبه من تلك الدنيا كما قدر الله له.

قالت فاتن:

- لكن ياابنتي أنا أخاف عليك وحدك.

ردت عائشة:

- ماذا أفعل يا أمي؟ لن أنجح إن لم أسافر، تعلمين يا أمي لن أضيع كل مجهودي سُدًى بعد أن قطعت شوطًا طويلًا في رسالة الماجستير.

أجابت أمها حازمة لتنهي ذلك النقاش:

- إذًا تنتظري كي أرتب أموري وأذهب معك، لن تذهبي وحدك!

رفضت عائشة متعللة بأنها ليست صغيرة، وأن خالها عبد القادر سيأتي ليأخذها، أخبرتها أمها أنها ليست مطمئنة خاصة أن سيمان غيَّر لها خطة الرسالة بعد سفر المشرف الرئيسي عليها، تشعر أن هناك شيئًا ما غير مريح.

- دعيني أتحدث مع سيمان أولًا.

همَّت عائشة بالرد فأوقفتها جدتها لحظة دخولها عليهما قائلة:

- لا تخافي يا فاتن، كما سمعتها تقول خالها سيكون معها، بإذن الله لن يتركها سيحميها؛ فهي ابنة له قبل أن يكون لديه بنات، تعلمين كم يحبها ويشتاق لرؤيتها، لا تعيقي الفتاة لمجرد الخوف، أفهمتِ يا ابنتي؟ أخوك سيكون معها فلِمَ القلق؟

أدارت فاتن عينيها إلى ثويبة تبثها خوفها على ابنتها من الذهاب إلى سيفار، ذلك المكان المشؤوم، تتذكر ما حدث، كيف خسرت أباها فيه؟ مرت أمامها ذكرى وقوفها وحيدة في عزاء أبيها دون أي صديقة تشدد من أزرها أو تساندها بعد أن اعتبروه متوفيًا لمجرد أنهم وجدوا قميصه ممتلئًا بالدماء ممزقًا فوق رمال سيفار، اعتبرها الكل منبوذة فأصبحت وحيدة لا تملك سوى أخ كبير هرب بحثًا عن أبيه، لم يواسِها سوى زوجها الذي أخرجها من هناك ولم يُعِدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظر أوس إلى زين متفحصًا جرحه محاولًا وقف الدماء حتى يأخذه إلى المشفى، يسأله من فعل هذا به؟

تلفت حوله فأخذ سكينًا صغيرًا من أحد الرجال على الأرض، وضعه على نار كانت موقدة بالفعل ليقوم بكي الجرح، انتظر حتى أصبح كالجمر فقطع ثوب زين بعد أن مدده عل مقعد السيارة وأرجعه للوراء كي يتسنى له معالجته، أخذ السكين فكوى جرحه كي لا ينزف الكثير من الدماء، وأخرج من صندوق سيارته حقيبة إسعافات صغيرة فوضع مرهمًا وغطى الجرح بالقطن واللاصق، وتركه نائمًا وثريا بجواره، ثم عاد ليبحث عن كيرال بالكهف، بعد دخوله وجد هاتفه على الأرض؛ علم أنه سقط منه أثناء دخوله، أضاء الهاتف حتى وصل إلى المدخل الآخر فوجده ممددًا على الأرض فاقدًا وعيه، تنهد طويلاً قائلًا:

- الحمد لله، لم نفقده هو الآخر.

حمله أوس على كتفه، يسير لاهثًا ملتقطًا أنفاسه بصعوبة حتى خرج إليهما، فوجد سيارة الشرطة، لاحظ الضابط سيف الدماء تسيل على جبين كيرال، فوضعوه في السيارة، وقف أوس يلتقط أنفاسه سائلًا:

- لماذا تأخرت هكذا، سيف الدين؟ لقد حدث الكثير.

أخبرتني السيدة ثريا بما حدث، لقد طلبتُ الإسعاف وهي في طريقها إلى هنا ليأخذوا المصابين إلى المستشفى القريب، ثم تخبرني أنت بالبقية.

- لقد اختفت جثة فارس التي أرسلت لك صورتها، وحدث الكثير.

- أخبرتك ألا تأتي إلى هذا المكان، لكنك لم تستمع إليَّ.

وصلت سيارات الإسعاف بعد ساعة، حملت المصابين وأخذوا زينًا وكيرال معهم، ضمد أحد المسعفين جراح ثريا التي في وجهها وأعطوها ماءً و دواءً لتهدأ قليلًا، طلبوا من أوس أن يأتي خلفهم بها ليقوموا بفحصها في المشفى، ركبا السيارة تاركين الخلف لتجلس فيه ثريا وحدها، فسأل أوس ابن خالته هل مر على أمه اليوم؟ لأنه حاول الاتصال ولم يجب أخوه.

رد سيف عليه:

- لا، لقد مررت على قلعة غات؛ حدث هناك انفجار صغير أمام البوابة الأمامية للقلعة؛ فأرسلوني إلى هناك ولم أستطع الذهاب لرؤية خالتي اليوم، لكني تحدثت إلى تاج الدين واطمأننت عليهما، لا تقلق، هما بخير.

- من يمكنه فعل ذلك عند القلعة القديمة يا سيف؟

- لا أعلم حتى الآن، قبضنا على رجل ممن قاموا بالتفجير، لكنه لم يتحدث حتى الآن.

تنظر ثريا عليهما، هما أبناء خالة وهي ليس لديها أحد سوى أمها، شابان تظهر عليهما الشهامة والرجولة من حديثهما وخوفهما عليها حينما وجداها، لم يهتم بها أحد من قبل، حتى أمها لا تسأل أين تذهب؟ ولا متى تأتي؟ كل ما يهم راتبها الشهري الذي لا يهمها من أين تأتي به؛ فهي لا تدري ما عملها في الأساس، تنهدت طويلًا فنظر إليها سيف يطمئن على حالتها، شكرته، أخبرته أنها بخير وتريد فقط العودة إلى بلدها بسرعة، ثم اعتذرت من أوس على سوء معاملتها له سابقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رن هاتف المنزل، ردت ثويبة على المتصل، فإذا المتصل شخص من ليبيا يخبرها بدخول كيرال الرعاية الصحية؛ لسوء حالته بعد ارتطام رأسه بحجر عقب سقوطه من مكان عالٍ جدًّا في إحدى مناطق جبال أكاكوس، وقعت سماعة الهاتف من يدها، كادت تسقط هي الأخرى، لكن أسندها عمر، تناولت عائشة السماعة مسرعة فقال لها المتصل:

- على أحدكم المجيء إلى جبال ليبيا ليبقى مع البروفيسور في المشفى.

- من أنت؟ أخبرني ماذا حدث لأبي؟

- أنا فارس رفيقه في الرحلة، على أحدكم أن يأتي ليهتم به ويتابع حالته؛ لأنه بالمشفى.

ترك لها العنوان ورقم هاتفه وأغلق الاتصال.

شعرت عائشة بخوف على أبيها فأخبرتهم أنها ستذهب إلى حيث يوجد هو، لقد تغير مخططها، لن تذهب إلى سيفار.

صُعقت فاتن وثويبة مما قالت، لكن لا مفر، يجب على أحدهم الذهاب إليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخل أوس المستشفى مع ثريا، كانت تختبئ خلف سيف الدين لأنه أطول بقليل من أوس، لا تريد أن يراها أحد بهذا المظهر؛ لاحظ أوس ذلك فطلب من إحدى الممرضات أن تحضر لها حجابًا مع بعض الملابس وأعطاها بعض المال مقابل ذلك، جاءت الممرضة أعطتها حجابًا، مردفة أنها ستجلب لها ملابس تفي بالغرض، ثم أخذتها إلى قسم الطوارئ ليفحصوها، تذكر أوس أنه نسي شيئًا للحظة!

- البروفيسور وزين لم أسأل عنهما؛ انشغلت بها، انتظرني هنا.

ذهب إلى الاستقبال يسأل عن المصابين الذين وصلا قبلهم بقليل؟ فأخبرته الموظفة بمكانهما فذهب إلى غرفة كيرال أولًا ليطمئن عليه، فوجده ممددًا على السرير ذي الغطاء الأخضر كعادة المستشفيات، رائحة المشفى متعبة لأي شخص صحيح، دخل الغرفة وجدها باردة كالثلج، وهي في الأصل بيضاء لا يوجد بها سوى سرير أبيض ذي غطاء أخضر، بجواره حامل المحاليل الطبية والمكيف المعلق على حائط الغرفة، أخذ ريموت المكيف وشغله كي يدفئ المكان قليلًا، نظر إلى كيرال وجده يحاول فتح عينيه لينظر إليه، فتح فمه محاولًا التحدث؛ فأخبره أوس أنه يجب أن يرتاح، لكنه ظل يحاول التكلم حتى قال له:

- فارس! إنه فارس، لم يُقتل.

شخَّص أوس عينيه مشدوهًا قائلًا:

- لقد رأيته بعيني مقتولًا.

- لقد كان الملثم الذي اختطف ثريا، أطلق شيئًا ما عليَّ فلم أشعر بشيء.

طمأنه أوس بأنه تم تخديره فقط، سيتعافى ويستعيد نشاطه سريعًا، لكنه تساءل لِمَ فعل فارس ذلك وهو رفيق له منذ سنوات ومنظم الرحلة معه؟ أخبره كيرال أن قليلًا من النفاق لا يضر، متحدثًا عن خيبة أمله فيه لأنه فضَّل المال على رفقته، رغم أنه كان يكِنُّ له الحب والاحترام على مواقفه السابقة معه طوال سنوات دراسته تحت إشرافه، طلب من أوس أن يطمئن على عائلته؛ لأنه يخشى أن يصيبهم أذى بسبب فارس، فهناك متربص به لا يعلمه.

خرج من غرفة كيرال ليطمئن على زين، أخبره الطبيب أنه سيظل في الرعاية مدة يسيرة؛ لأن جرحه عميق ولفقده الكثير من الدماء، دعا له بالشفاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت غرفتها لتستعد لسفرها، أخرجت حقيبة كبيرة نفضت عنها الغبار وفتحت خزانة الملابس بدأت بالترتيب، لحقت بها أمها وجدتها لمنعها من السفر فأبت أن تستمع إليهما، فطلبت أمها تذكرة لها كي تذهب معها، خرجت من المنزل لحجز تذاكر الطيران وإنهاء إجراءات السفر، كانت متعجلة جدًّا، ما إن وصلت إلى شركة الطيران لم تجد سوى تذكرة واحدة مباشرة إلى ليبيا، أخذتها لكنها كذبت على أمها قائلة :- أمي لم أجد تذاكر طيران.

- لا تقلقي، سأتدبر أمر التذاكر من شركتنا.

بعد عودتها اتصل أوس من هاتف كيرال ليطمئن عليهم؛ أجابته فاتن واطمأنت منه عليه طالبة منه أن يحدثهم صوتًا وصورة ليطمئنوا عليه أكثر، فوافق على طلبها، جلس الجميع في انتظار المكالمة ليلًا، ما إن اتصل كان قد استفاق كيرال؛ استطاع التحدث إليهم جميعًا ليطمئن، أخبروه بعد التحيات أن فارسًا اتصل بهم قبل ساعات، أكمل أوس نيابة عنه لسوء حالته، أخبرهم أن فارسًا هو من تسبب في إصابته وأنه لم يعد معهم، ارتاب الجميع بعد تلك الكلمات، لكنها أخذت قرارها بالذهاب؛ بعد نوم الجميع ستخرج لتلحق بالطائرة، عزمت على أن تنتظر بالمطار حتى موعد سفرها كي لا يعقيها أحد، فور نومهم تسللت إلى الخارج تجر حقيبتها وهاتفها، ورسالة من أبيها وجدتها في جلدة كتابه المفضل الذي أخذته معها، كان فحواها أنه «قد لا يعود من تلك الرحلة»، خائفة تترقب أن يراها أحد، أوقفت سيارة أجرة لتتوجه بها إلى المطار تاركة رسالة لأمها تخبرها بسفرها، بعد مرور أكثر من خمس ساعات على انتظارها في المطار أرسلت إلى أوس رسالة على هاتف أبيها بأنها قادمة؛ لينتظرها في المطار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع
تهور عجيب

شارد يقود سيارته في طريق بلا نهاية مرئية، يسير على خريطة الهاتف ليعلم أين يتجه كي لا يضيع في صفحات الصحراء المنسدلة أمامه منخفضة ومرتفعة، رأى رسالتها، فاتصل على الفور ليعلم من القادم، أخبرته أنها ابنة كيرال ولن يمنعها أحد من المجيء، شرح لها الوضع وكم هو خطير أن تأتي إلى هنا دون مرافقين، فطلبت منه أن ينتظرها في المطار؛ لأنها لن تعود إلى بيتها خائبة، إما أن تأتي لأبيها أو يعود هو، والأمران شديدا الصعوبة في تلك اللحظة، أغلقت الهاتف فتأفف الآخر كثيرًا، يحدث نفسه أي عائلة تلك التي تلقي بأبنائها إلى التهلكة دون الاعتراض على شيء؟ ! الآن يجب أن يذهب كي لا يؤذيها أحد؛ فلابد أن هناك من يراقبها للوصول إلى كيرال.

استيقظت فاتن أعدت الفطور، نادت على أبنائها كعادتها فجاء عمر، انتظروا قليلًا لتناول الطعام مع بعضهم البعض، لكن لم تأتِ عائشة؛ طلبت منه الذهاب لإيقاظها فذهب إلى غرفتها، دق الباب مرارًا لم تجب، فتحه وجد الغرفة خالية، عاد إلى أمه قائلًا:

- ليست في غرفتها يا أمي، يبدو أنها ذهبت إلى الجامعة.

شعرت بريبة في الأمر فاتصلت بها، لكنها وجدت هاتفها مغلقًا، ذهبت إلى غرفتها فتحت خزانة ملابسها فعلمت ما فعلته ابنتها، بحثت في أرجاء الغرفة لم تجد شيئًا سوى رسالة اعتذار منها فيها: «سامحيني يا أمي، لن أترك أبي في الخطر وحده.»، تنهدت خوفًا مما قد يحدث لها:

- آه يا عائشة، ماذا ستجني من تسرعك؟

توجهت إلى المطبخ، أخذت هاتفها من على المنضدة، تنظر إليها ثويبة بذهول وكذلك عمر، لكنها لم تنتبه، اتصلت على أوس تسأله:

- هل حدثتك عائشة اليوم؟ لقد تركت رسالة بأنها ذاهبة إلى أكاكوس.

- نعم، حدثتني قبل صعودها إلى الطائرة وأنا سأنتظرها في المطار.

- الحمد لله، سأحجز في أقرب فرصة وآتي إليكم.

أوقف أوس السيارة على عجالة، فسقط منه الهاتف أسفل المقعد؛ مد يده لجلبه وعاد للمكالمة قائلًا:

- لا تأتي فضلًا، هكذا تعيقون العمل، لا يجب أن يأتي أحد، سأهتم بابنتك يا سيدتي، لا تقلقي.

أغلقت فاتن تتوعد عائشة بأقسى العقوبات عندما تراها، ربَّتت ثويبة على كتفها تطمئنها بأن المهم أنها بخير وأنهم يعلمون أين هي، طالما ستكون مع أبيها هم مطمئنون، لكنها لم تستطع أن تهدأ؛ لقد ذهبت ابنتها إلى الخطر بقدميها وكامل إرادتها، زفرت بضيق مردفة:

- لعله خير يا أمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقود سيف سيارة الشرطة ليترك ثريا لدى خالته حتى يتسنى لهم تحضير أوراق السفر؛ لتعود إلى مصر، تحدث معها أثناء القيادة عن زيارته لبعض الأماكن الأثرية في مصر، تفاجأ بأنها لم تقم بزيارتها ولو لمرةٍ واحدة، أخبرها أنه متعجب لكونها مصرية ولم ترَ آثار بلدها، تعللت بعدم وجود وقت لهذا، فسألها:

- نعم، أُصدِّق، لكن ألم يكن لديكِ يوم عطلة مطلقًا؟

- حسنًا، سأخبرك بشيء لا أقوله كثيرًا، أنا ابنة وحيدة لامرأة طُلِّقت وهي حُبْلى، أعمل منذ الثانوية العامة تقريبًا، بدأت بعمل في المكتبات ثم متاجر الحلوى إلى أن تعلمت في الجامعة، ما إن تخرجت حتى بدأت أتدرب على التصوير الاحترافي لأنني أحبه، والحمد لله نجحت، لكن كل عمل عملته كنت أشعر بتغيير بعده في شخصيتي، تغيرت كثيرًا عن تلك الفتاة الصغيرة التي أتمنى العودة إليها لكن بلا جدوى؛ لأنني لن أستطيع العودة بالزمن إلى الوراء.

شعر سيف بالشفقة عليها، بدا ذلك واضحًا في نظرات عينيه إليها، تنهدت ثم طلبت منه زيارة أي منطقة أثرية في طريقهما، الصحراء البديعة لوحة فنية رائعة الجمال مهما وُصفت، رمالها الذهبية، الصخور التي تشكلت بفعل عوامل التعرية الطبيعية فيها لن تستطيع ريشة فنان أن تصفها وصفًا دقيقًا، وصلا إلى قلعة كوكمن التي تُسمى بقلعة غات، طلبت منه رؤيتها عن قرب كي تستطيع تصويرها والدخول إليها، ركن سيارته بالقرب من القلعة ثم نزلا معًا لدخولها، ممر طويل به سلم كبير وقفت بالقرب منه مستعملة آلة التصوير الفوتوغرافي لتلتقط بعض الصور للقلعة من الخارج قبل أن ترى الداخل، فسألها:

- هل تعلمين شيئًا عن قلعة كوكمن؟ أم تلك المرة الأولى لرؤيتك لها؟

- نعم، المرة الأولى، لا أعلم شيئًا عن ليبيا، هذه زيارتي الأولى لها.

- يمكنني إخبارِكِ القليل عنها، فأنا دومًا بالقرب من هنا.

- حسنًا، سأسمع.

اقتربوا من البوابات الكبيرة، أسوارها شاهقة الارتفاع، فالمدينة كلها مبنية على جبل كوكمن والقلعة في أكثر المناطق ارتفاعًا، بدأ سيف بإخبارها مما يعرفه عن قلعة كوكمن التي بُنيت في حكم الدولة العثمانية على أعلى ارتفاع بالجبل، هدمها الاستعمار الإيطالي لكن أعادوا بناءها مرة ثانية فيما بعد.

سألته مباغتة:

- كيف تعرف كل هذه المعلومات؟

- أنا أعمل في شرطة آثار غات، وأعلم المدينة جيدًا.

شردت قليلًا تتذكر أنها لم تكن تقرأ عما تحب؛ لعملها الدائم منذ صغرها وزواج أمها من شخص لا يريد أن تضع لقمة في فمها من ماله، أخرجها سيف من شرودها بعد أن أخبرها أنه سيأخذها إلى المسجد العتيق([4]) عقب رؤيتها للقلعة والأماكن الأثرية القريبة إذا شاءت، بعد الانتهاء من التجول السياحي وصلا إلى منزل والدة أوس، فتح لهما أخوه تاج، فأخبره سيف بما حدث بصورة مختصرة طالبًا منه بقاء ثريا مع خالته حتى تنتهي الأوراق وإجراءات السفر إلى مصر؛ لأنها فقدت أوراقها عندما خُطِفت، رحَّب بها وأدخلها غرفة أخته بعد أن تعرفت على أمه وألقت عليها التحية، معتذرًا منها على عدم نظافة الغرفة؛ لأنه لم يعلم بقدوم زائر إليها، وضعت حقيبتها بعد شكره، ثم رتَّبت الغرفة قليلًا لتستريح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تجلس في الطائرة تستمع إلى الموسيقى في أذنيها، تائهة في بحر من الأفكار التي تعصف داخل رأسها، ماذا سيكون رد فعل أمها، جدتها، و أباها بعد أن يتفاجأ بوصولها إليه؟ حاولت نفض تلك الأفكار عن عقلها، تردد كلمات ما تستمع إليه من أغنيات، تذكرت أنها تحمل كتاب والدها عن أكاكوس الذي خطه بيديه؛ تركت الموسيقى بأذنيها ثم أخرجته من حقيبة ظهرها كي تكتسب بعض المعرفة قبل وصولها إلى مدينة غات.

بدأت تقرأ ما كتبه وجمعه في الكتاب الذي لا يعرفه أحد، بدأت القراءة بوصفه حين قال: «تلك الصحراء الخلابة التي تأسرنا بجمالها الطبيعي الذي لا يشوبه شيء، لن تجد ما يشبه معالمها ولا صخورها المنحوتة ببراعة بالغة، وبرغم كل هذا فيها من الرعب ما لا يشبه مكانًا آخر، إن توغلت داخلها قد لا تخرج، إن سلمت نفسك للأقاويل التي سمعتها عنها وسأكتبها لاحقًا ستُدفن

بداخلها ولن يعثر على أثرك أحد، فهنا في الظلام الدامس تكمن حياة الكاف الذي يخشاه البشر.»، ازدادت حماستها فأكملت ما كُتب كي تتوصل إلى بعض المعلومات عن المكان الذاهبة إليه، حتى وصلت إلى وصف الأماكن الأثرية بها، لكن وجود الصفحات الممزقة قطع قراءتها، ظلت تفكر لِمَ كانت تلك الأوراق مهمة لهؤلاء اللصوص؟ قلبت صفحات الكتاب لتصل إلى رحلته الميدانية إلى سيفار، فوجدت خريطتها مفقودة وبعض الصفحات أيضًا، بدأت تشعر بريبة في هذا الأمر، تفكر في علاقة تربط الرحلتين، علمت أنها لن تستطيع معرفة شيء بدون مشرفها الجديد سيمان، فعزمت على التواصل معه بعد وصولها طرابلس، أدخلت الدفتر في حقيبتها تاركة الموسيقى في أذنيها، ونامت لطول المدة في السفر.

استيقظت حين سمعت مضيفة الطيران تخبر الجميع أنهم بعد بضع دقائق سيكونون في مطار طرابلس الدولي، عليهم الاستعداد للهبوط، أخرجت هاتفها فتحته للتواصل مع أوس عند الهبوط، لم تنتبه لمن على يمينها يراقب تحركاتها كلها، حتى أنه لم يغفل عن سكناتها لحظة، عندما قامت لتنزل من الطائرة نسيت هاتفها على المقعد، هرول أحدهم ليأخذه حاول فتحه لكنه كان مغلقًا برقم سري، فنزل خلفها ليعطيها إياه، بعد أن انتبهت لنسيانه كانت عائدة؛ فقابلها هذا الرجل معطيًا إياها هاتفها، شكرته ثم رحلت..اتصلت بأوس أبلغته أنها وصلت إلى مطار طرابلس.

طلب منها الانتظار حتى يصل إليها، دخل أوس يحمل لافتة عليها اسمها (عائشة كيرال)، ظل يتلفت حوله فلم يجد أحدًا ينظر إليه، تذكر أنها يمكن أن تكون في مطعم فألقى اللافتة في سلة القمامة وأخرج هاتفه يتصل بها كي يعلم على أي طاولة تجلس، توجه إليها فور معرفته مرحِّبًا بها، ألقى السلام معرِّفًا عن نفسه؛ بادلته التحية طالبة منه الجلوس قليلًا؛ لأنها تظن أن ذلك الرجل الجالس على بعد ثلاث طاولات منهما يراقبها، طمأنها أوس قائلًا:

- لا تقلقي، أنتِ أمانتي الآن، سأحميكِ حتى يُشفى والدك.

- هل مرض أبي ثانيةً يا سيد أوس؟ ألم يتحدث معنا أول أمس وكان قد بدأ يتحسن كما قلت؟

- أعلم، لكن فجأةً نسي من نكون، لم يتعرف على أي منا؛ لذا توجب عليَّ أن أخبركِ، أخشى ألا يعرف من أنتِ أيضًا.

توجم وجهها، كيف لا يعرفها أبوها؟ ! وهي عاشت عمرها معه، كيف ستقوى وحدها على تلك الرحلة التي غيرت مسار حياة أسرتها؟ تذكرت ما تحمله معها من أخبار عن أكاكوس في كتاب أبيها، أخبرت أوسًا أنها ستحاول أن تجعله يتذكرها ويعلم من هو، وكيف كانت حياته، لابد أن يتعرف عليها؛ فهي لا

تملك أي شخص سواه في هذا البلد، خرجا معًا من المطار، أبدت عائشة إعجابها بكل شيء، وقامت بشراء تذكار من معرض بداخل المطار مجسم على شكل قلعة كوكمن، واشترت عصابة رأس أخبرها أوس بأهميتها، ولأن طريقهما عبر الرمال أخرجت نظارة شمسية وضعتها، ثم ارتدت العصابة بداخل المتجر، ثم رحلا إلى السيارة.. ركبت معه تبدأ رحلة تحُفُّ بالمخاطر، ذهبا إلى المشفى رأت والدها لكنه لم يعرفها، فهمت من الطبيب المعالج أنه هُوجم بالقرب من المشفى، ضُربت رأسه بأداة حادة تسببت في فقدان جزئي للذاكرة، صُعقت حينما علمت أنه تمت مهاجمته أثناء الخروج متهمةً المشفى بعدم المسؤولية والإهمال الشديد، مطالبة بأخذه إلى تركيا كي يتلقى علاجاته هناك حيث الرعاية الأفضل، نهرها أوس عن التحدث إليهم بتلك الطريقة؛ لأنهم يحاولون حمايته منذ وصوله، ولما أراد الخروج ليكمل رحلته تمت مهاجمته بالخارج على بُعد شارع من المشفى، ولا يعلمون من هاجمه حتى الآن، وإن خرج من هنا ستصبح حياته في خطر.. ظلت مع والدها أسبوعًا ترعاه، حجزت غرفة مجاورة له كي تبقى معه، يأتيها أوس بالأخبار والطعام يوميًّا، وحتى ذلك الحين لم تخبره شيئًا عن كتاب كيرال، بعد تواصلها مع عائلتها لم تستطع إخبارهم عن وضع أبيها، كانت تتحجج بانشغاله في رحلته وتركها في المنزل الذي يمكث فيه كي لا تقلقهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مرور أسبوعين يركب عمر مع رفيقه سيارة أجرة كما اعتادا عند ذهابهما إلى التدريب إن لم توصلهما أمه، يستقلان سيارة، لكن ما حدث في هذه المرة يجعله لا يفكر في ركوب سيارات بعد ذلك أبدًا، كانت هذه السيارة قادمة خصيصًا لتقله إلى حيث يريد، ظلت تسير بأماكن غير الوجهة التي حددها، حاول إخبار السائق مرارًا أن الطريق خطأ، لكنه لم يستمع إليه ولا لرفيقه الذي كان معه، فجأة دون سابق إنذار اقترب السائق من منحدر كبير ثم ألقى بنفسه إلى الخارج تاركًا الصبيين بالخلف، لم يكلف نفسه عناء النظر إلى وجوههما حتى شعرا برعب يسري في جسدهما، حاولا فتح الأبواب لكن كانت موصدة بإحكام، لم يتمكنا سوى من كسر الزجاج؛ خرج عمر لكن علق صديقه بالداخل..انفجرت السيارة، رأى عمر النار تعلو كأن بها قنبلة، فقد أخاه أمام عينيه.. بدأ يتذكر شريط حياته معه، همساتهما، ضحكاتهما وسكناتهما-كانا معًا منذ الطفولة-جاثيًا على الأرض إثر الكدمات التي تعرض لها بخروجه من السيارة المفخخة، جاء المنقذون فشعر بهم، نقلوه إلى سيارة الإسعاف مباشرة، لم يتفوه بكلمة سوى:»أخي هناك، أنقذوه فضلًا.»، نظروا إليه بعيون خاوية من الأمل في نجاته، علم أنه فات الأوان، بدأ بتأنيب نفسه أنه السبب فلِمَ لمْ يساعده على الخروج؟ ! مر أسبوعان على وفاته، عمر حبيس غرفته، لا يتخيل أحد كم الحسرة في قلبه، مع غياب عائشة لا يجد

من يساعده على الخروج من تلك الحالة، لم تراوده نفسه على شيء سوى الانتحار.. حاول إبعاد الفكرة عن رأسه، لكنها كانت مسيطرة كأنها تجذبه جذبًا، ظلت تأتيه مرارًا كلما أزاحها عادت، دق الباب؛ دخلت عليه ثويبة تمسِّد رأسه تطمئنه بأن موعده معه في الجنة وأن عليه الدعاء له كلما اشتاق إليه، لكنه لم يجب عليها، قالت له:

- حدثني يا عمر، دعني أسمع صوتك ثانيةً، قلوبنا تعتصر ألمًا عليك يا بُني، ألا يكفيك تلك المدة من الصمت؟ ! خيم الحزن على منزلنا منذ ذهاب أبيك، ومن بعده أختك.

ظلت تتوسل إليه أن يجيب، أما هو فمغيب كأنه يعيش في عالم آخر غير عالمها، يحاول أن يسترق السمع إلى صوت صديقه الذي فارقه بعد أن كان معه طيلة حياته، علم أن للقدر أقوال أخرى في صداقتهما، لكنه لم يستطع منع قلبه من لوعة الفراق و الاشتياق، ظل يفكر كيف يمكنه الذهاب إليه، لم يهده عقله لشيء سوى الانتحار؛ فحدثته نفسه ألا تنتحر، ستحزن عائلتك عليك، سيشعرون بنفس الألم الذي تمر به الآن، نحَّى الفكرة عن عقله قليلًا، لكن أنَّى لشيطانه أن يهدأ بعد طرح ما يريد !فما أحب إليه من أن يقتل إنسان نفسه دون عناء بالوسوسة إليه ! طالما استسلم لحزنه سيفعلها إن لم يستطع أحد إخراج الأمر من رأسه، أما نفسه سيرغمها على الصمت كي ينفذ مخططه اللئيم. دلفت أمه للغرفة وضعت له الطعام على الطاولة المجاورة له ممسكة يده تاركة له مصحفًا صغيرًا كي يقرأ ويهدأ قليلًا، نظرت إليها ثويبة بعينين تلمعان من الأسى على حفيدها الذي تسأل الله أن يحميه من شر نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس
المنزل المسكون

جالسة بجواره تريه صورًا لها معه ومع بقية عائلته؛ كي يستعيد شيئًا من ذاكرته التي فقد، لم يتعرف إلا على أمه و زوجته، حزنت لعدم معرفته إياها و أخاها، خطرت لها فكرة أن تريه صورًا من حفل تخرجها وفيديو يجمعها وأهلها جميعًا به، نظر إلى الهاتف فرأى نفسه يتحدث عنها أمام الحاضرين وكم هو فخور بأنها ابنته ! علم أنه نسي ذلك مع ما نسيه؛ اعتذر منها، قبَّلت رأسه ويده تخبره أنها لن تتركه حتى يتذكر كل ما مضى.

بعد مرور خمسة عشر يومًا خرج كيرال من المشفى بعد أن دبر لهما أوس منزلًا بالجوف([5])، وهي بلدة تبعد عن منطقة أكاكوس، منزلًا كله من الحجارة الرملية بطراز ليبي قديم، له قبة مخروطية بالجانب الأيسر لها فتحة تهوية علوية، باب خشبي كبير له مقبض حديدي مستدير.. فتح الباب ليكشف عن محتوياته البسيطة بعض الشيء، مقاعد حجرية عليها وسادات يدوية الصنع نُسجت بدقة شديدة، أوانٍ نحاسية براقة لم تُستخدم من قبل، ثلاجة صغيرة، بعض أدوات المطبخ الأساسية، ومروحة مثبتة في السقف، غرفتان وحمام، ترك لها أوس جهاز إنترنت هوائي كي تستطيع التواصل مع عائلتها بإسطنبول، تمنى لهما يومًا سعيدًا ليرحل مؤكدًا عليها أن تتصل به متى أرادت أي شيء، توجهت عائشة إلى الغرف وضعت حقيبة أبيها بواحدة وحقيبتها بالأخرى، ظلت ترتب المكان الذي أُغرمت به، لكن ما إن وضعت رأسها على وسادتها حتى سمعت صوت عويل وعواء بالخارج؛ فهرعت لترى ما يحدث، وجدت شابة عشرينية قد نهش أحد الحيوانات المفترسة قدمها وجثت على الأرض تنتحب تستنجد بمن في المنزل كي يساعدها، تلحَّفت عائشة بعصابة رأسها لشدة العاصفة الرملية بالخارج، حملت معها مصباحًا صغيرًا كي تستطيع الحركة مع الفتاة المصابة، أخذتها مسرعة إلى الداخل وأغلقت الباب تتساءل كيف حدثت عاصفة فجأة؟ ! ولم ترَ ذلك في نشرة الأرصاد، قدَّمت للفتاة ماءً باردًا وجلبت حقيبة إسعافات أولية كانت تحملها معها من أجل أبيها، فضمدت جرحها وجعلتها تتمدد على الأريكة الحجرية حتى الصباح كي تذهب إلى المشفى، أرسلت لأوس رسالة بما حدث ثم خلدت للنوم، لكن هناك شيئًا عجيبًا، حاولت تصوير الفتاة لكنها لم تظهر في الصور، فظنت أن هناك عُطلًا ما بهاتفها ولم تنتبه لشيء آخر.

استيقظت عائشة في الصباح وجدت كيرال يحضر الطعام فألقت عليه التحية، سألته عن الفتاة فأخبرها أنه لم يرَ أي أحد هنا، ظلت تبحث كالمجنونة في

المنزل حتى أنها بحثت عن القطن الذي تلوث بدمائها في سلة القمامة فلم تجده، جُن جنونها فاتصلت بأوس تخبره ما حدث معها، تعجبت أكثر حين أخبرها أنه لم يتلقَّ منها أي رسائل، حاولت أن تهدئ من روعها قليلًا تخبر نفسها أنه ربما حلم رأته وكل شيء طبيعي، لكن داخلها لم يكن يستمع لما تقول لنفسها، خافت مما حدث بالأمس واختفى بحلول الصباح، بدأ القلق يغزو عقلها، ذهبت تلقي نظرة من النافذة على صوت سمعته بالخارج؛ وجدت ذئبًا يلهث أمام المنزل فانتفضت تخبر أباها بأن هناك ذئبًا بالخارج، اقترب منها كيرال لينظر لكنه لم يرَ شيئًا، جلست تمسك برأسها بين كفيها تتلاطم الأفكار في عقلها كأنها في بحر لُجِّي يغشاه موج من فوقه موج، لا تقوى على فعل شيء سوى الصمت حتى تثبت له أن ما تراه حقيقة.

بعد مرور نصف ساعة طُرق الباب، فإذا به أوس دخل فقال:

كيف حالكما؟

رد عليه كيرال قائلًا:

- نحن بخير، كيف حالك أنت؟

رفعت عائشة رأسها تقول:

- لكنني لست بخير، رأيت أشياء في الليل واختفت في النهار، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ !

اقترب منها ليعلم عمَّ تتحدث، قصت عليه ما فعلته مع الفتاة، ولم تجده في الصباح؟ حتى أنها سألته عن الذئب الموجود بالخارج فصُعقت لعدم رؤيته شيئًا، قامت من مكانها تتأكد فلم تجده، لكنها وجدت الفتاة تلوح لها من بعيد، أخبرتهما بوقوف الفتاة بلا جدوى، تكرر الأمر بعدم رؤيتهما.

أرادت الخروج لتثبت لهم صحة ما تراه، فرفض أوس، أخبرها أنه سيخرج بدلًا منها، لكنها ظلت تجادله حتى فقد رباطة جأشه قائلًا:

- لا تجادليني الآن يا عائشة، لن تأتي معي في أي مكان.

- سأذهب يا أوس، لست مسؤولًا عني.

ضيق عينيه محذِّرًا إياها قائلًا:

إياكِ أن تختبري صبري عليك، فقد بدأ ينفذ بالفعل.

ماذا ستفعل إذا نفذ صبرك؟

سأحبسكِ هنا في تلك الغرفة حتى أعود.

حدثته متسائلة ماذا ستفعل إن لم يعد؟ فهي خائفة من المجهول المتوجه إليه وحده رغم عدم رؤيته، أخبرها أنه سيكون بخير فهو يعلم المنطقة جيدًا عكسها تمامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تراقب جلساته مع أمه، ضحكاته معها، تفتقر لمثل ذلك الاهتمام من أمها، فكيف إن كان المهتم هو الابن؟ ! يعاملها كطفلته المدللة وهي لا تطمئن إلا بوجوده جوارها؛ لذا لا يتركها كثيرًا، لاحظ مراقبتها له، نظراتها التي تدل على أنها لم تحصل على حنان أم أو أب، تحسَّر لعدم وجود أي منهما، هل انهمكا في جمع الأموال تاركين ابنتهما تتسول الاهتمام من أي شخص؟ تنهَّد تاج طويلًا، ذهب إلي المراقِبة باهتمام يسألها عن حالها، أجابته على استحياء أنها بخير، أراد أن يسأل عن حكايتها لكنها ستحى عائدًا إلى أمه، أوقفته هي تخبره عما أثقل قلبها فقالت له:

- أحب طريقتك مع أمك، تعاملها كطفلة مدللة.

- بل ملكة متوجة، لقد عانت أمي الكثير منذ فقدت أختي، ثم أبي الذي خرج باحثًا عنها ولم يعود الناس وى جسدين لا روح فيهما، أُصيبت بمرض نفسي من صدمتها؛ لذلك حينما يغادر أوس ترى كوابيس طوال الليل، تبكي وتصرخ، تأتيها نوبات صرع؛ لهذا السبب لا أتركها حتى يعود كي تبقى هادئة.

طأطأت رأسها تذرف دموعها التي خانتها مردفة:

- أنا تركني أبي قبل ولادتي، كنت في رحم أمي، تركها ولم يأبه لطفلته، حتى أنه لم يأتِ ليختار اسمي، لم يرَ ابنته التي جاءت إلى الدنيا حتى كبرت، بحثت عنه لأراه لكنه رفضني، وصرفني، قال أنه ليس لديه أبناء من تلك المرأة، أبي لم يلمس يدي يومًا، لم أشعر بضمة حانية منه يومًا، ولا حتى نظرة، لم ينادِ اسمي، عشت حياتي كلها كاليتيمة بلا أب، لما جاء لأمي زوج عاملني ببشاعة؛ خافت جدتي عليَّ منه، فعندما أتممت ثلاث سنوات من عمري أخذتني، فكانت هي ملاذي الوحيد و مأمني، تركت لي منزلها، كتبته لي، لكن أجبرتني أمي أن أبيعه لأجل زوجها المدخن لكل أنواع السجائر، بعته فلم أخبرها بسعر البيع الحقيقي، وضعت بقية المال في بنك كي يتسنى لي أن أصرف على نفسي حتى أكمل دراستي، تلك الأم أيضًا لم تشفق عليَّ، كان همها ألا يتركها زوجها، أما ابنتها فغير مهمة.

اعتذرت منه أنها حكت ما يحزن القلب.

أخبرها أنه سمع الكثير من الحكايات أبشع من تلك، أخبرها أنه معجب بشخصها منذ مجيئها إلى منزله، لكنه أخفى عنها ما بدأ يتسلل إلى قلبه من

مشاعر نحوها، أخذ نفسًا عميقًا مشجعًا لنفسه وبعده تحدث بكلمات سريعة:

- هل تقبلين أن تكوني زوجتي؟ لكنني لست غنيًّا بل ميسور الحال.

نظرت إليه بعينين دامعتين قائلة:

- عفوًا، لا أريد شفقة منك، هل تريد أن تتزوجني لأنك أشفقت عليَّ؟ آسفة، لا أقبل بهذا الزواج، ما إن تنتهي أوراق السفر غدًا سأعود إلى مصر وأواصل حياتي.

- لم أطلب ذلك شفقة عليكِ، بل إعجابًا بكِ وبشخصك، ثم إنكِ تحبين أمي وهي تحبك.

دخلت غرفتها تبكي، حبست نفسها حتى اليوم التالي الذي أخبرها سيف أنه موعد انتهاء إجراءات سفرها إلى مصر، بالفعل اتصل بها يخبرها أنه حان الوقت لتعود إلى مصر بعد أن ظلت لدى أم أوس لمدة أسبوعين وأكثر، اطمأنت بها ولها، بعد أن اعتادت عليهما سترحل إلى تلك الأم التي لا تأبه بعودتها، تتركها هكذا دون حماية في غابة الحياة، بلا أب ولا أخ يدعمها، ذهبت إلى والدته تقبِّل رأسها تخبرها بأنها ذاهبة إلى المطار كي تعود إلى بلدها، فتطلب الأخرى منها البقاء، لكنها لم تستطع ذلك بحجة أنها غير معتادة على الحياة في ليبيا، كما أن ليس لها عمل هنا؛ بدأت تبكي كطفل صغير فقد الحلوى خاصته، اقتربت منها تكفكف دموعها تطيب خاطرها، لكن بلا فائدة، أخبرها تاج أنها ستهدأ بعد قليل، هي فقط تقلق على كل من تتعلق به، حزنت لرؤيتها هكذا فهي التي حُرمت من حنان الأم والأب، رنَّ هاتفها برقم سيف الذي ينتظرها بالخارج لينقلها إلى المطار، قبَّلت رأسها مرة أخرى لتخرج، استوقفتها تخبرها ألا تذهب، لكن كيف تبقى؟ هي في بلد ليس لها أحد فيه! ألقت عليها السلام قبل رحيلها متمنية أن تراها على خير.

لم تلتفت إليها، أشار إليها تاج أن ترحل كي لا تتأخر على الطائرة، فخرجت مطأطئة رأسها وأغلقت الباب خلفها، وهو يضم أمه بين ذراعيه حتى تسكن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج عمر من غرفته دون التفوه بكلمة لأمه أو جدته متوجهًا إلى الخارج، ظل يسير في الشوارع دون توقف، كل مكان مر به مع رفيق عمره تؤلمه ذكرياته تارة وتسعده تارة، حتى وصل أمام صيدلية كبيرة، دخل اشترى حبوبًا منومة خبأها في جيب بنطاله، عاد للمنزل، ألقى السلام متوجهًا إلى غرفته يؤنب نفسه لِمَ اشترى هذه الحبوب؟ ! ماذا يحاول أن يفعل؟ !خيم الليل في سماء إسطنبول وهو جالس خلف النافذة يتأمل السماء، أخرج الحبوب من جيبه أخذ يتناول حبة تلو الأخرى حتى أنهى العبوة كلها، شرب كوب ماء كاملًا، ثم تمدد

على سريره لينام نومة أبدية، لم يترك لهم حتى رسالة اعتذار، استسلم لحزنه استسلامًاتامًّا، سمى الله وغط في نوم عميق عله يرتاح بعده، بعد ساعة ظل هاتفه يرن دون أن يجيب، سمعت أمه فطرقت باب الغرفة لكنه لم يجب؛ دخلت عليه بعد أن فتحت بمفتاح الغرفة الذي معها وجدته ممدَّدًا وعائشة تتصل، أجابتها، بعد التحية والاطمئنان عليها وضعت يدها على جبين عمر الذي كان يهلوس بكلام غير مفهوم، تسري رعشة في سائر جسده الممدد مع وجود قطرات العرق الغزير على جبينه؛ انتابها القلق، حاولت إيقاظه لكنه لم يُجِب، أغلقت مع عائشة ثم طلبت الإسعاف، ما إن وصلت السيارة حتى أخذوه وكانت هي واقفة لا تدري ماذا تفعل..تغير أبناؤها بعد رحلة زوجها، التفتت لتأخذ حقيبتها فوجدت عبوة دواء ملقاة بسلة المهملات، فحملتها معها خلف سيارة الإسعاف لعلهم يعرفون سبب تعبه المفاجئ، ذهبت معها ثويبة إلى المشفى، فوجهت إليها سؤالًا بعد أن أعطتها فاتن علبة الدواء التي وجدتها:

ماذا حدث؟ كيف اشترى ذلك الدواء؟

لا أعلم يا أمي، لكنني سأحاسبه على ما فعل بعد أن يستفيق.

حزنت الجدة على حفيدها الذي حاول إزهاق روحه، لم تقل شيئًا، ظلت تدعو الله في نفسها أن ينجيه، بعد وصولهم إلى المشفى أعطت أمه عبوة الدواء إلى الطبيب، فقاموا بعمل غسيل معدة له، لكنهم أخبروها أنه قد يحدث له مضاعفات خلال فترة وجيزة ثم يتعافى بإذن الله، نقلوه إلى غرفة كان لا يزال نائمًا، جلست جدته بجواره تمسِّد شعره البني، تمسك يده، تنظر لجسده الهزيل لقلة تناول الطعام وتحدثه قائلة:

- أردت قتل نفسك يا عمر؟ ألا تعلم كم نحبك يا بُني؟ !

دمعت عينا فاتن مردفة:

- أراد أن ينتحر يا أمي، استسلم لحزنه، يريد حرق قلبي عليه.. سأعاقبه، والله لن أتركه بعد فعلته تلك.

استدارت لها ثويبة والحزن يخيم على وجهها قائلة:

- لن تفعلي له شيئًا، لن أسمح لكِ، هو مصدوم بما رآه في هذا السن الصغير، علينا توجيهه إلى كيفية خروجه من صدمته لا أن نعاقبه، ثم ألم تحاولي فعل ذلك بعد فقد أبيك يا ابنتي؟ ! وأنقذك كيرال حينها، أنسيت؟ !

نظرت إليها معاتبة لها لأنها ذكرت ذلك، هي خائفة على ابنها، لم تنسَ ما فعلت أثناء يأسها، عزمت ألا تكرره وتحاول أن تكون شخصًا آخر لا يستسلم

لحزنه، لم تجب على ثويبة، اكتفت بالخروج من الغرفة؛ كي تستنشق بعض الهواء حتى يهدأ قلبها وتحاول العفو عنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يتحدث متوجهًا إلى فارس الذي أخطأ في مهمته للمرة الثانية على التوالي، يسأله عما يريد من معلومات، أحصل عليها أم مازالت محاولاته بائسة في التخلص من كيرال وأخذ المعلومات منه؟ أجابه:

- لقد أصبته يا سيدي، ظل في المشفى خمسة عشر يومًا، والآن هو فاقد لذاكرته.

- هل أنا أردت أن يفقد ذاكرته أم أردت المعلومات التي جمعها طوال سنوات عن المنطقة؟ أخبرني الآن.

حاول أن يسترضيه فهو يعلم أن مصيره الموت، لن يرحمه الزعيم ولن يأبه لقوله؛ كل ما يهمه المعلومات والانتقام من كيرال فقط لا أي شيء آخر، بعد فشله في جلب المعلومات من إسطنبول كرر ذلك هنا في ليبيا، أين يمكنه النجاح؟ يخفق في أي مهمة تُوكل إليه، قد يُباع في أي لحظة أو يُقتل، فدماؤه رخيصة.. أخبره سيده بآخر مهمة له، إن فشل سيُقتل لا محالة، وهي أن يحصل على المعلومات التي جمعها كيرال من ابنته التي تسكن معه الآن بأي ثمن كان، وحذره من أن يأتي بدونها، خرج عازمًا على تنفيذ الأمر بأي طريقة حتى وإن قتل الفتاة، المهم أن يفتدي نفسه.

تجهز كيرال وعائشة للخروج مع أوس الذي يحاول جعل البروفيسور يتذكر ما جاء لأجله، لكنه لم ينجح بعد، غادروا جميعًا المنزل للتوجه إلى منطقة واو الناموس، لاحظ أوس أن عائشة تتطلع إلى أحد وتشير إليه؛ تعجب لذلك، لكن لم يُرد أن يسألها في هذه اللحظة، ما إن وصلوا إلى واو الناموس بعد عدة ساعات حتى خرجت من شرودها متسائلة بصوت عالٍ:

- كيف لهذا الجمال أن يغفل عنه العالم؟ إنها حقًّا كما قيل قطعة من سطح القمر سقطت على الأرض.

طلب أوس أن يرتاح بعد قيادته لساعات طويلة، فطلبوا منه الجلوس لشرب القهوة كي يستأنفوا رحلتهم التي تشوقت إليها عائشة بعد قراءتها عنه، جلسوا لاحتساء القهوة المُعدة منزليًّا يأكلون الكعك الليبي المالح الذي أحبت تناوله منذ قدومها إلى غات، سألها أثناء ذلك هل أعجبتها ليبيا أم لا، أومأت له أنها وقعت في حبها وكذلك طعامها.

كان كيرال يحاول أن يسترجع شيئًا عالقًا في عقله عن هذا المكان، تذكر قراءته عن واو الناموس؛ أمسك دفتره الذي أعطته إياه عائشة حينما استفاق

ليبحث عما كتبه عنه، وجد أنه ذكر شيئًا عن عالم فرنسي جاء إلى واو الناموس([6]) من أعوام عديدة، تحدث معهم كأنه يشرح لهم عن المنطقة قائلًا:

- هل تعلمان أن واو الناموس هذا بركان خامد، به الكثير من البحيرات والمحميات الطبيعية حوله هنا؟ سنأخذ جولة سياحية هنا بعد أن تنهيا طعامكما، هيا استعدا.

نظرا إلى بعضهما متفائلين لأنه بدأ يستعيد بعضًا من ذكرياته أو على الأقل جزءًا من تخصصه في دراسة جغرافية وتاريخ إفريقيا، طلبت عائشة من أوس أن يأخذهما كل يوم في جولة إن استطاعوا حتى يستعيد ذاكرته، وافقها الرأي، ما إن انتهوا من الطعام قاموا ليتجولوا في المكان، تلك الصخور البازلتية السوداء تسحر العيون مع تدرج ألوانها رغم كِبر حجم الفوهة البركانية للجبل الخامد، والبحيرات المتعددة الألوان المنتشرة على سفحه والأشجار والنخيل الذي لا يوجد سوى في واو الناموس، النخيل له جذوع دائرية عجيبة تنتشر الأوراق على فروعها فتعطي مظهرًا خلابًا، فسبحان المبدع في خلقه، قامت بتصوير كل ما وقعت عيناها عليه حتى رأت الجِمال؛ طلبت أن تركب أحدهم، ذهب أوس وتحدث إلى صاحب الجمل ليأخذها في جولة، لفت نظرها أنه تحدث لغة غير العربية، فسألته قبل ركوبها عنها أخبرها أنها اللغة الأمازيغية، يتحدثها بعض الطوارق لغة وكتابة بواسطة حروف التيفيناغ (لغة قديمة)، ركبت لمدة نصف ساعة تتجول بالجمل في واو الناموس، كان أوس وكيرال ينتظرانها لكنها تأخرت عن الموعد، لم يعد بها صاحب الجمل؛ تحركا يبحثان عنها في الأرجاء، وجدا الجمل لكنهما لم يجدا صاحبه؛ مما أثار الرعب في نفسيهما، أين يمكن أن تذهب دونهما؟ واصلا البحث حتى عمَّ الليل وانسدلت ستائره الحالكة في السماء التي تلألأت بنجومها الساطعة.

خائفةٍ جاثية على الأرض في ركن خلف شجيرات كثيفة حتى يأتي من ينقذها مما أقحِمَت فيه دون سابق إنذار، أخذ منها هاتفها الذي لم يتوقف عن الرنين حتى نفذت بطاريته، كان معها الكاميرا الخاصة بوالدها، صورت بها الشخصين الملاحقين لها، لكن لم تبدُ وجوههم واضحة، ظلت تتنقل بين الشجيرات حتى التَوَت قدمها؛ فتأوهت بصوت خافت، توجه أحدهم عقب سماعه لصوتها، أمسكها من شعرها أوجعها فصرخت، كان صوتها قريبًا من أوس الذي توجه ناحية الصوت يبحث عنها لاهثًا ملتقطًا أنفاسه بصعوبة، ضرب صاحب الجمل الرجل الذي يمسك بعائشة على رأسه بعصا كبيرة؛ فأفلتها من يده، هربت منهما راكضة، أما من يراقبها في صمت لم يكن يعلم بقرب أوس منها، حاول إصابتها بمسدس التخدير الخاص به، لكنها لم تقع؛ ظلت تجري حتى رآها

أوس فذهب إليها، لكنها سقطت، جلس بجوارها يلهث مسح جبينه حامدًا ربه على إيجادها، ثم حملها بين يديه متوجهًا إلى السيارة بمساعدة صاحب الجمل، اتصل بأبيها كي يعود وشكرا الراعي على صنيعته ورحلوا، ظلت عائشة نائمة طوال طريق العودة حتى وصلوا أمام المنزل، بدأت تستفيق وبدأت الشمس تشرق بأشعتها الساطعة لتنير تلك الصحراء بتموجاتها التي تشبه البحار، فتحت عينيها تسأل ماذا حدث؟

تنهد أوس قائلًا:

- لا شيء، أنتِ بخير.

- لكنني أشعر بثقل شديد في رأسي، كيف حدث ذلك؟

كان متعبًا، بدا عليه النعاس الشديد، سألها بصوت خفيض:

- ماذا تتذكرين مما حدث بالأمس؟

- أذكر اللص وصاحبه اللذين ضربا صاحب الجمل وكبلا يديه، ثم أخذاني عنوة وسرقا هاتفي.

- حسنًا، هل يمكنني النوم الآن ولنتحدث لاحقًا؟ لم أنم منذ أمس، أنا في حاجة شديدة للنوم الآن.

عرض كيرال عليه أن ينام بداخل المنزل كي يرتاح من تعب رحلة الأمس الشاقة، وافق أوس فنزل معهم، رآها تلوح بيدها لتلك المنطقة المجاورة مرة أخرى وهو يحدث نفسه في كل مرة قائلًا: «كيف تلوح للفراغ كل مرة أراها؟ !»، نفض عن عقله التفكير حتى يتسنى له سؤالها، ما إن دخل المنزل خلفهما حتى ألقى بجسده الواهن على الأريكة وغط في سبات عميق، جلبت له غطاء وتركته نائمًا، ذهبت لتعد وجبة خفيفة، طالبة من أبيها أن يرتاح هو الآخر، فدخل غرفته يؤنب نفسه لأنه لا يذكر شيئًا من حياته.

ظل أوس نائمًا تداعب الأحلام روحه بعد يوم عصيب، رأى نفسه يسقط في غياهب الليل لا ترى عيناه شيئًا سوى ضوء خافت بعيد، صراخ أمه يزداد في أذنيه، لطالما كان يستيقظ فزعًا من صوتها، بعد أن شب قليلًا كان يرى أخاه الكبير يعتني بها دومًا، كان يتصبب عرقًا يتمتم بكلمات مسموعة مما جعلها تنتبه لذلك؛ ذهبت إليه لتوقظه وجدته عاقدًا جبينه المتعرق، جلبت منديلًا مسحت على وجهه برفق، انتفض من نومه فرأى وجهها شاحبًا سألته هل كان يحلم؟ أراد تغيير مسار الحديث عن حلمه الذي لازمه لسنوات، فتذكر أنها لوحت مرتين أمامه للفراغ، سألها قائلًا:

- لمن كنتِ تلوحين اليوم أثناء خروجك من المنزل و عند عودتك؟

- كنت ألوح لرفيقتي التي تسكن بالمنزل المقابل لنا.

دُهش لما قالته؛ فليس هناك من يسكن في الجوار، فلا منازل غير هذا في هذه المنطقة، تردد قبل أن يجيب عليها، جالت بخاطره فكرة أن تعرفه على تلك الرفيقة، فسألها عن اسمها ليتفاجأ أنها لم تسألها، هي فقط تلوح لها كلما رأتها، لم يتحدثا قط إلى الآن، لكنها تود التحدث إليها للتعرف عليها أكثر وليصبح لديها صديقة ليبية، زفر بضيق وطلب منها أن يكون معها عندما تتعرف عليها ضمانًا لسلامتها، تأففت لأنها لا تحب أن تكون مقيدة، لكنها وافقت، قامت لجلب الطعام الذي كانت قد انتهت من إعداده، لكنها لم تجده على الطاولة؛ هرعت للبحث في كل مكان، سألهاعماتبحث، قالت:

- لقد صنعت الطعام ووضعته في الأطباق كي نأكل، لكنني لم أجد شيئًا.

قال أوس في نفسه:

«لقد بدأ الأمر يتكرر».

قام من على الأريكة ينظر إلى الخارج من نافذة المنزل، كانت الشمس شارفت على الرحيل، أشعتها الحمراء تملأ السماء، لقد نام طويلًا عكس ما كان يتوقع، أخبرها أنه سيخرج لجلب الطعام حتى لا تتعب نفسها في التحضير من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس
اختفاء مبهم

عادت إليهما، تبادلا التحيات، أخبرته بأنها ستظل في ليبيا، هي ليس لوجودها أهمية في مصر، تفاجأ تاج بما قررت مرحِّبًا بها يسألها لِمَ عادت؟

أجابت عن سؤاله بسؤال، وتحدثت بصوت يملأه الخجل:

- هل ما زال عرض زواجك بي مستمرًّا؛ لأظل معكما للأبد؟

لم يتوقع ردها، أخبرها أنه مازال قائمًا، أي شاب يتمنى الارتباط بها، ولكن ليكون واضحًا معها أخبرها أن سبب عدم زواجه حتى الآن هو عدم قبول أي فتاة به؛ لكونه يهتم بأمه المريضة، وهو لن يتركها وحدها ليعيش في منزل مستقل، أخبرته أنها ستعيش معهما، لا تريد أي شيء سوى الاستقرار بينهما حتى تشعر بدفء عائلته التي لم تعش مثله يومًا مع أمها وزوج أمها، فَرِح لموافقتها مردفًا:

- يجب الاستعداد لإقامة حفل زفاف يليق بكِ.

سألته على استحياء عن سبب عرضه الزواج بها، حدثها بأنه يهتم بها منذ أن جاءته خائفة، حينها شعر بشيء يجذبه إليها ويجعله يرغب في إشعارها بالأمان أولًا، طالما تمنى أن يجد من تحب أمه وتعينه على الاهتمام بها، لقد عوضه الله خيرًا؛ لذا لن يفرط بها لحظة، اطمأنت بكلامه، نظرت إلى سيف وشكرته على موافقته على إعادتها إليهما.

بارك لهما سيف مردفًا:

- مبارك عليك يا تاج الدين، أنت تستحق الخير كله.

- بارك الله فيك يا أخي، العقبى لك يا سيف.

- لا، اسحب كلمتك يا تاج، أنا حر هكذا، لن أتقيد بزواج.

ابتسم الآخر يمازحه بأنه سيتزوج يومًا فهي سُنة الحياة، لا أحد يحب أن يبقى وحيدًا، طلب منه أن يساعده في تحضيرات الزفاف، يريد أن يكون على الطريقة الليبية التي يعتادون عليها، ثم أخبره أن يتصل بأوس كي يحضر هو الآخر، خرج سيف بعد أن كتب له تاج الدين قائمة ببعض الاحتياجات، وأعطاه نقودًا؛ ليجلب معه بدلة للعرس التكمس، والحولي، حدد له اللونين الأبيض والأسود، أما هو فاتصل على خالته فدوى كي تأتي لترافق ثريا في شراء احتياجاتها كعروس؛ لأنه لن يجعلها تخرج وحدها، هللت خالته من فرط

سعادتها لأنه وجد عروسًا بعد كل تلك السنوات، مردفةبأنها ستتجهز لتأتي إلي تلك التي قبلت به وأمه معه؛ تشكرها وتساندها في يوم زفافها المنتظر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جالسون يحتسون الشاي بعد تناولهم الطعام، كانت تفكر فيما حدث، كيف اختفى الطعام؟ ! ما قصة الجارة التي سألها عنها أوس، قامت تنظر من خلف الزجاج على المكان بالخارج، فما هو إلا صحراء تبدو أنها بلا نهاية، النجوم ساطعة تظهر بوضوح بعيدًا عن صخب المدينة وأضوائها التي تحجب جمال السماء بالعين المجردة، انتبهت لشيء بالقرب كأنه بشر يأتي من بعيد، حاولت أن تمعن النظر، لكنه كان بعيدًا جدًّا، ظلت تدقق حتى رأت شخصًا يرتدي زيًّا أبيض كأنه عباءة يخفي بها جسده، لكنها ملفوفة بطريقة مختلفة، سمعت صوتًا يهمس في أذنها:»باسم المختار»، عادت إلى الوراء فزعة؛ فأسقطت كوب الشاي من يدها، اقترب منها أوس سائلًا:

- ماذا حدث؟ هل هناك شيء أخافكِ؟

أجابته وقد هربت دماء وجهها كله، تتنفس بصعوبة:

- لا شيء، سمعت أذني كلمة «المختار»، وهذا الشيء الذي يتحرك على الرمال أفزعني، أتعلم هذا المنزل غريب جدًّا.

استأذن منهما كيرال الذي يحيا في عالم مختلف تمامًا بعد فقدان الذاكرة لينام، أما هما فجلسا قليلًا، طلب منها أن تخبره ما يحدث معها منذ مجيئها، زفرت بقوة تتلفت حولها لتقص عليه ما تراه فقالت:

- كلما جلست وحدي رأيت أشخاصًا يتحركون في المنزل، إذا ذهبت إلى النافذة أشعر بمن يقف خلفي، لكن إن التفت لم أجد أحدًا، أذكر ذات يوم كنت أجلس على الكرسي الكبير في غرفة المعيشة أقرأ الكتاب، فوجدت خيالًا أبيض بدا كشخص يسير متجهًا نحو غرفة النوم، أدرت رأسي لأنظر بطرف عيني فوجدت باب الغرفة مفتوحًا، انقبض قلبي وتسارعت ضرباته، ارتعشت يداي، تركت القراءة لأرى ما دخل غرفتي، فوقفت متشجعة أسير إلى الغرفة؛ فصُدمت حينما أُغلق الباب في وجهي، أمسكت المقبض لأفتح، لكنه كان محكمًا، اتصلت بك لأخبرك بالأمر فوجدت من يحدثني في أذني قائلًا:

- لا تتصلي به، لن يصدقكِ أبدًا.

جلست أبكي حينها حتى استيقظ أبي وأخبرني أنني كنت أصرخ بصوت عالٍ وأنا نائمة، لكنني لم أكن نائمة يا أوس، هل تعلم سر ما يحدث معي؟

لم يتفوه بكلمة، كان مشدوهًا لما يسمعه منها، لكن ما حدث هذه الليلة أعظم من توقعاتهما كلها، سمعا صراخًا داخل غرفة كيرال، حاولا أن يحطما باب الغرفة الذي أصبح حجريًّا كباقي أحجار المنزل، يسمعان صراخه خلف الحائط يتحدث مع شخص ما يطلب منه أن يتركه، يخبره أنه لا يذكر شيئًا ولا يعلم عما يتحدث الآخر، حتى اختفى الصوت تمامًا، كذلك لم يعد الباب، كأن الغرفة لم تكن هنا، تضاعفت صدمتهما حينما وجدا كتابه الذي كان يقرأ فيه أمامهما، كيف وصل إليهما؟ كان يمسكه بيده أثناء دخول غرفته، أخذته عائشة احتضنته، جالت بنظرها لم تجد سوى أوس، صفعته بقوة مردفة:

- أين أبي؟ ماذا يحدث في هذا المنزل؟

ابتلع ريقه بصعوبة، يبدو أن ما قالته أمه قد حدث في الحقيقة، لم تكن تتخيل، لقد ابتلع المنزل أخته وأباه منذ سنوات كما حدث الآن أمام عينيه، لكن كيف يحدث هذا؟ أين يختفون؟ أمسكت به عائشة من ياقته سائلة:

- أين ذهب أبي؟ أخبرني، هيا وإلا لن أرحمك، صدقني.

أفلت يدها من عليه قائلًا:

- كنت أجلس معكِ حينما اختفى، كيف لي أن أعرف؟

خارت قواها فتهاوت على الأرض، لكنه طمأنها بأنهما سيجدان أباها، لن يسمح أن يؤذيه أحد، نظرت إليه تخبره بإصرار أنها ستكون معه حتى تجده، لن تتركه أبدًا.

- لن تصدقي ما سأخبركِ به الآن، هذا المنزل يسيطر عليه كاف الجنون.

- هل ما كتبه أبي هنا صحيح؟ ! أن هناك أماكن يسيطر عليها الكاف؟

- هل كتب البروفيسور ذلك؟

أخبرته أنه كتب في هذا الدفتر كل ما يخص كاف الجنون مع خريطة لا تعلم فحواها جيدًا، أخذه منها ليرى ما فيه، صُعق مما كتب كيرال فيه عن أكاكوس والكاف المتحكم بها، متسائلًا هل تلك أسطورة أم حقيقة؟ وماذا سيحدث إن تتبعا تلك الخريطة المرسومة بدقة عالية؟ سألته عائشة وعيناها تترقرق بالدمع:

- هل تساعدني على استعادة أبي؟

نظر لها صامتًا لعلمه خطورة ما قد تمر به وحدها، لن يأتي معهما أحد، ماذا سيحدث إن ذهبا للبحث عن كيرال؟ ومن المختار الذي تحدثت عنه عائشة؟

هل هو كما يرى في أحلامه، أم تلك ذكريات مخيفة تراوده أثناء نومه ليس لها علاقة بالواقع؟ طلبت منه الإجابة على سؤالها فقال:

- سأساعدكِ، لا يمكنني أن أتركَكِ وحدكِ.

وجد رسائل على هاتفه الذي كان مغلقًا من أخيه وابن خالته، ورسالة أخرى من رقم خاص مكتوبة بحروف التيفيناغ القديمة؛ يبدو أن هناك من يعلم بمعرفته لتلك اللغة، كانت فحوى الرسالة: «لا تتعمق في أكاكوس وإلا خسرت روحك.»، انتفض، فأسقط هاتفه على الأرض، ووجد اتصالًا هاتفيًّا من نفس مرسل الرسالة؛ التقط الهاتف ليجيب، فتح الاتصال قربه من أذنه ليسمع صوتًا خفيضًا يقول:

- أريد المختار فقط وإلا سأقتل الجميع.

حاول أن يفهم مَن المختار الذي يريد، فأخبره المتصل أنه يعرف نفسه، سيأتي لقدره بقدميه، كذلك المختار هو مَن قرأ الرسالة السابقة، شعر أوس بخوف شديد، علم أن حلمه قد يتحقق.

رأت الذعر في عينيه وهي التي تحاول إظهار الشجاعة، بدأت أنفاسها تتلاشى، فأخرجت دواءها من حقيبتها، استنشقت منه حتى تعود روحها من جديد، انتبه أوس فعلم أنها مريضة ربو مثل أخته التي فقد، تشببها في الكثير من الأشياء؛ تموج شعرها الطويل وعينيها البنية، النمش على أنفها وخديها، لا شيء آخر يعرفه عنها، كان صغيرًا حين فُقدت مع أبيه في المكان الذي سيذهب إليه بقدميه رغم علمه بمصيره المنتظر إن دخله، التفتت ترى نظراته المشفقة، فأخفت دواءها غير مبالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأ عمر في تحريك جفنيه بعد أن ذهب مفعول المنوم الذي ابتلعه، لم يفتحهما كليًّا وكأن ثقل العالم عليهما، جالسة أمه بجواره تراقبه، استنار وجهها لرؤيته يفتح عينيه التي ظنت أنها لن ترى بريقهما ثانية، سالت دمعة حارقة من عينيها حزنًا منه على ما فعل، تريد معاقبته، لكن أنَّى لها أن تفعل! تلمست يده تطمئنه أنه بخير، لم يتفوه بشيء إلا بسؤال:

- أين أنا؟

اقتربت جدته تقبِّل جبينه تخبره بسعادتها لأنه على قيد الحياة، تؤنبه على فعلته؟ رأت في عينيه خيبات الأمل، لم يكن يريد النجاة، حدثته قائلة:

- هل كنت تريد أن تحرق قلوبنا عليك يا عمر؟

أشاح بنظره عنها، مازال مستسلمًا لليأس الذي ملأ قلبه، قالت له:

- أرى اليأس في عينيك يا عمر، لكن هل هو يأس من رحمة الله؟ أتعلم! أحيانًا يغرقنا الحزن حتى نعتاد عليه، وننسى أن في الحياة أشياء كثيرة يمكن أن تسعدنا، وأن حولنا وجوهًا كثيرة يمكن أن تضيء في ظلام أيامنا، فابحث عن قلب يمنحك الضوء، ولا تترك نفسك رهينةً لأحزان الليالي المظلمة.

أخبرها بصوت خفيض أنه يشعر بثقل في قلبه، وضعت يدها على قلبه ثم احتضنته تطمئنه من خوفه لرؤيته رفيقه يموت أمام عينيه، فقالت:

- إن الفراق عمن نحب أسوأ من الموت ويحبط الأمل، لكن انظر إلى أمك، لا تريد التحدث إليك، لقد أحزنتها، خاب أملها فيك، أترى كيف تجلس جوارك دون التفوه بكلمة؟

أدار نظره تجاهها يستسمحها بدمعة، لكنها أبت التحدث، فلم يكن منه سوى أن يطلب منها السماح على ما فعل، قبَّلت رأسه ثم خرجت من الغرفة؛ مازال عقلها لا يستوعب ما حاول فعله، طمأنته جدته بأنها ستسامحه، لكن عليه أن يحافظ على نفسه ولا يسلم روحه وقلبه للشيطان الذي جعله يحاول قتل نفسه دون رحمة، إن الله غفور رحيم وعليه طلب العفو من ربه على ما بدر منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الظلمة سمة دائمة في هذا المكان، ما تلك الغرفة التي حُبس بداخلها فجأة؟ أين أخذته الأيادي التي رآها في غرفته على غفلة منه؟ يتحدث بصوت عالٍ علّ أحدًا يسمعه، لأول مرة يشعر بالوحدة والخوف، لم يكن قلبه يعلم أيًّا منهما، ما استشعر تلك الأحاسيس قبلًا، كُسر غروره وهو الذي لم يهتم لأحد سوى نفسه ومغامراته فقط، صوت أقدام قادمة نحوه، لا شيء سوى العتمة، يسأل مَن هناك؟ لا أحد يجيب، يصرخ ليرى أي ضوء، فجأة خُيل إليه أنه رأى أمه الذي لم يذكر سواها، وزوجته متمثلة أمامه في ثوب أبيض تقول له لِمَ تركتني وحدي؟ حاول أن يمسكها لكنها تلاشت، ظلت أشباح الماضي تمر أمامه واحدًا تلو الآخر، رأى ابنه وابنته الذين لم يكن يتذكرهما، ما ذلك المكان؟ أهي غرفة الذكريات التي محاها عقله بعد إصابته المفاجئة؟ يعلو صياحه مع شهقاته حتى رأى نفسه أمام عينيه واقفًا ثم صدمه شيء في رأسه، بعدها سهم اخترق ظهره، آخر أصاب قلبه، رأى مقتله أمام عينيه بسهام بدائية الصنع، جسده ينتفض يرتعش لخروج روحه منه، كأنه لا يريد الموت، يحاول التعلق بأي شيء يراه، لكن ليس هناك سوى الظلام.. جاء ضوء من بعيد؛ رجل ذو وقار كبير، أخبره أن يستفيق من غفلته، من نومته، عليه أن يحافظ على مبادئه التي ثبت عليها، فأخبره كيرال أنه لا يستطيع، فظهره مصاب بسهام الغدر، طلب منه الآخر ألا يستسلم، عليه أن ينتصر أو

يموت؛ تلك المعركة معركته وحده، عليه ألا يخسرها وإن نجحوا في هدم معنوياته، إن الضربات التي لا تقسم ظهره تقويه.

- هيا، قم من غفلتك، كيرال.

انتفض ناهضًا من نومته، لم يرَ سوى ضوء يخرج من فتحة صغيرة في الكهف الذي قُيد به، حاول تذكر ما حدث، كيف وصل إلى هنا، جاءه صوت يقول:

- أخيرًا استيقظت! ننتظرك منذ ساعات، هل اشتقت لأصدقاء قدامى أم ستظل متناسيًا؟

- أظهر نفسك، لا تحدثني في الظلام.

قالها كيرال محاولًا رؤية من يحدثه عن قرب بلا جدوى؛ المكان معتم تمامًا.

- أخبرني أولًا، هل اشتقت أم لا، بروفيسور؟ أتذكر من آذيتهم فيما مضى؟

- لا أعرف صوتك، لكنه ليس غريبًا عليَّ، ثم أي صداقة التي تتحدث عنها وأنا مكبل اليدين بتلك الطريقة؟ !

تنهد الآخر طويلًا ينظر إلى من معه من الرجال، يخبرهم أن كيرال لن يتذكر ما حدث، وإن فعل سيحاول تبرئة نفسه كما فعل منذ سنوات طوال حينما خسر هو أباه بسبب عجرفته ليعرف أسرار الحضارات القديمة في رحلاته.

- لقد وقعت في يدي، لن أرحمك، سأضعك في نفس المكان الذي فقدت فيه أبي.

فكر كيرال أن يتحدث معه أكثر ليتذكر ما حدث، لكن هذا الشخص تركه مع ظنونه ليفكر مَن آذى منذ سنوات كما يدعي.. سمعه يخرج فتحدث إليه ليعرف من هو، فأخبره أنه صديق قديم عاد لينتقم.

في الصباح تسللت أشعة الشمس التي تتخطى كل الألوان والأزمنة ببهائها، ترسم الأمل على هيئة ضوء، وتخيط من الفجر البهي سلال المحبة إلى العالم كله. إنها الشمس التي لا يمكن للكون أن يرى النور إلا بضيائها، ولا يشرق على الأرض شعاعٌ إلا وقد استمدَّ منها سره الأزلي؛ فكيف لا يُحمد خالق صوَّرها بهذا المنظر المتجدد؟ !

دبَّ الأمل في قلبها، ما إن فتحت عينيها وجدت أوسًا يوقظها كي تبدأ رحلة البحث التي لا يعلمان ما سيحدث فيها، طريقهما الذي رسمها لقدر ليكونا فيه معًا؟ أخبرها أن تستيقظ حتى يتحركا، وأنه قد أعد الفطور لها؛ نهضت من على الأريكة التي قضت الليلة عليها ممتنة له على وجوده معها، توجهت نحو الحمام وجدت الماء منقطعًا، سألته عن ذلك فأخبرها أنه قد ملأ دلوًا من الماء

بجوار الحوض، نسيت إغلاق الصنبور وأخذت من الدلو مباشرة لتغسل وجهها، فجأة انطلقت من الصنبور دماء غزيرة؛ صرخت محاولة الخروج، لكنها لم تستطع.. ظلت تتعالى شهقاتها؛ صدرها يأبى الهدوء كي تتنفس، هو بالخارج يريد فتح الباب ليخرجها لكنه لم يستطع، سقطت عائشة على الأرض، بعدها تمكن من كسر الباب فحملها ووضعها على الأريكة، قام بالبحث في حقيبة يدها فأخرج الدواء ثم جعلها تستنشق بعضه، أمسكت يده بقوة تضغط على العبوة لتخرج الرذاذ لتتنفس، شكرته محاولة إظهار أنها بخير لكنها تشعر بدوار شديد سيقتلعها من جذورها، جلب الطعام أمامها لتأكل، فهو يراها تترنح، يعلم أنها تحتاجه لتقيم بدنها فأخذت تأكل منه بلهفة، جلس أمامها حتى تحسنت حالتها، وخرجا للبحث عن أبيها، باغتها بسؤال:

- منذ متى وأنتِ مريضة؟

- لا أعلم كم كان عمري حينها، كان هناك حادث لا أستطيع أن أنساه حتى الآن، سقطت على الأرض بعد سعال شديد اجتاح صدري، بعدها علمت بمرضي.

- أتعلمين شيئًا! أنتِ تشبهين أختي كثيرًا مع بعض الاختلافات في الشكل، لا أذكرها كثيرًا فهي تُوفيت وأنا صغير، كانت بعمر عشر سنوات حينها، هناك سر آخر ينبغي أن تعرفيه؛ هذا المنزل هو لأبي- رحمه الله-، إذ لم أكن أعلم أي مكان آخر بالمنطقة لأننا انتقلنا بعد وفاتهما لشدة مرض أمي.

- لا بأس، لعلهما في مكان أفضل، لا تحزن عليهما، بل علينا أن نحسن فيما بقي كي نقابل من نحب في الجنة؛ هكذا تخبرني جدتي دومًا.

أومأ لها رافعًا عينيه يكتم مشاعر يريد البوح بها، لكنه يخجل دومًا ولا يستطيع التفوه بكلمة أمام أي فتاة يُعجب بها، كان يخاف أن يتحدث إلى أي فتاة؛ لأن أخاه علمه ذلك، أنه إذا أحب فتاة عليه أن يتزوجها ولا يدع الشيطان يسول له أن يصاحبها..

شربا الشاي ثم خرجا معًا، وجدها تلوح لتلك الفتاة التي أخبرته عنها، أخذته من يده لتخبره أن يحدثها كي تتعرف عليها، لكنه لم يرَ شيئًا، دُهشت لإخباره لها أنه لا توجد منازل بها سكان؛ فالمنطقة هنا مهجورة منذ سنوات طويلة، علقت ببالها جملته «لا أحد يسكن هنا»، أخبرته أنها تتحدث إليها يوميًّا منذ مجيئها وكذلك أمها وأبيها، ابتلع ريقه وجال بنظره في المكان لم يرَ شيئًا، فقال لها:

- هيا نمشي يا عائشة من فضلك.

- لِمَ تشعرني بأنني مجنونة؟ ، إنها هنا واقفة أمامك.

- لا أرى أحدًا، لا شيء إلا الصحراء، لا توجد منازل غير هذا المنزل، أفيقي يا عائشة.

عادت للوراء قليلًا، أخرجت كاميرتها الخاصة التي التقطت بها الصور، فإذا بها فارغة، لا توجد إلا الصحراء فقط، رمشت بعينيها أسفل وأعلى تبحث على الصور جيدًا، أخذ منها الكاميرا قائلًا:

- سأخبركِ أمرًا آخر، لكن عِديني ألا تخافي مما سأخبركِ به.

- هل هناك أسوأ مما أراه اليوم؟

قد يكون أسوأ، هذا الأمر لم أكن أصدِّقه لعدم حدوثه أمام عيني.

وقفت تستند على السيارة بظهرها تستمع لما يقول، أخبرها أنهم في مدينة الكُفْرَة([7]).، تلك التي حارب فيها عمر المختار الاستعمار الإيطالي منذ زمن بعيد، حدثت خسائر فادحة في الأرواح، كان سكان المدينة يقولون أنهم يسمعون صياح نساء وأطفال، وشيوخ، بل كانوا يسمعونهم يتأوهون، ولا أحد يعلم كيف ستهدأ تلك الأصوات؛ فهي باقية مهما طال الزمن، يُقال أن أرواحهم تأتي ليلًا، كل من كان يقطن هنا يسمعها أو يراها، لكنه لم يرَ شيئًا حين كان يسكن هنا، ومنهم من قال أن الجان سكنت المدينة بعد هجر الناس لها، أخبرته أنها قرأت عن ذلك في دفتر أبيها، لم تعلم أنه قد يصبح حقيقة.

- تُرى ما قصة الجيران والفتاة التي أراها هنا بالجوار؟

تنحنح أوس يخبرها أنها قد تكون من الجان أو شبحًا ما، فضحكت من حديثه عن الجان مخبرة إياه أنها لا تخاف منهم مطلقًا، لا يهمها حتى إن كانت شبحًا، تعجب أوس من غرورها وأنها لا تخاف كما تقول، فطلب منها أن يذهبا مسرعين لأنه يخاف، سألته عن وجهتهما:

- من أين سنبدأ يا أوس؟

- لا أعلم، تلك المرة الأولى التي لا أعلم فيها وجهتي.

- سنذهب إلى الأماكن التي وضعها أبي في الخريطة، ما رأيك؟

أخذها منها كي يعلم إلى أين سيتجه، فطلبت منه أن يحدثها عن عمر المختار أثناء الطريق، وافق على شرط ألا تقاطعه بالأسئلة، وأنهما يجب عليهما المناوبة في القيادة لأن الطريق طويل، وافقت على طلبه وبدءا الرحلة المحفوفة بالمخاطر.

قاد أوس السيارة قائلًا:

- بسم الله نبدأ السير إلى المجهول الذي ينتظرنا سواء كان خيرًا أم شرًّا.

كان قلبه غير مطمئن للطريق الذي اختاراه، فقد لا يعودان منه، ولم يستطع التخلص من التفكير في الرؤى المتكررة التي تؤرقه ليلًا، ظلت ترافقهما تلك العيون المراقبة لتحركاتهما أينما ذهبا لتحصل على ما تريد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع
لعنة زفاف

استفاق من غيبوبته التي طالت في المشفى أخيرًا، بعد أن فتح عينيه سأل عن رفاقه؛ أخبرته الممرضة بحالته السابقة متمنية له تمام الشفاء، طلب منها أن تتصل بأوس كي يأتي فأومأت إليه أنها ستفعل، لكن عليه الراحة حتى يأتي الطبيب ليتفقد وضعه الصحي، خرجت من غرفته ذاهبة إلى الاستقبال تطلب منهم الاتصال برفيق زين، ففعلوا ذلك متصلين بسيف الدين الذي نقل الخبر إلى ثريا كي ترتاح؛ لظنها أنها المتسببة في إصابته، اطمأن قلبها لنجاته، حاول تاج أن يتواصل مع أوس، لكن هاتفه كان خارج الخدمة؛ فأرسل له رسالة يطمئنه على زين.

جلبت له الممرضة الطعام حتى يأتي أصدقاؤه ويذهب معهم؛ لأنه سيخرج ليكمل علاجه بالمنزل، بعد مرور ساعتين أو ثلاث وصل سيف إليه مصطحبه إلى تاج، فرحَّب به وآواه إليه في غرفة أوس حتى يعود إلى بلده سالمًا، أخبروه بأمر الزفاف، تعجب قليلًا لكنه بارك لهما، طلبت منه ثريا أن يأخذ رسالة إلى أمها بعد عودته إلى مصر، أخبراه أنهما سيقيمان الحفل على الطريقة الليبية التقليدية. بدأت التحضيرات للزفاف، نزلت ثريا مع والدة سيف لشراء احتياجات العروس على ذوقها، كانت معهما سيارة يتحركان بها من مكان إلى آخر، في الطريق أخبرتها الخالة أن مراسم الزفاف تظل في غات ثمانية أيام من الجمعة إلى الجمعة، وقامت بشرح كل شيء خاص بها، في اليوم الأول يتم التحضير لوليمة العرس وذبح الخراف، الثاني والثالث تقوم النساء بتجهيز أكلة الفتات، وهي عبارة عن رغيف رقيق يسكب فوقه مرق اللحم المطبوخ، أما الرابع يوم الاثنين فيتم التجهيز لأكلة الكسكسي وهي وجبة العرس السائدة بقية الأيام، ويقوم النسوة بفرش الرمل في منزل العروس، في اليوم الخامس يتم تجهيز حلويات العرس ويقوم النساء بدق القرنفل، كذلك يتم تمشيط العروس وترتدي قميصًا يُصبغ باللون الأسود على جسدها، ثم ترتدي كالبي([8]). على رأسها بعد عمل الضفيرة بالخيوط الصوفية والجدرة، وترتدي رداء بتركمت أحمر اللون، معه حجاب جلد ملون مطرز بخواتم فضة، اليوم السادس يقمن بتبييض جدار المنزل الخارجي بالطين الأبيض، ثم تبدأ احتفالات فرقة القنقة بالغيطة([9]) حتى منتصف الليل لإتمام حنة العروس، أما العريس يُحنى في منزل أحد أصدقائه، وتقوم المشاركة بصبغ وجه العروس باللون الأسود ووضع قطعة من قماش الأليشوا مبللة بالماء والزيت كنوع من الاهتمام بالبشرة، في يوم الخميس وهو السابع تقوم النساء بفرش المنزل ووضع التريلين في ضفيرة العروس التي تكون قد

ارتدت رداء الريقا([10]) الخاص بالزفاف، تبدأ الزفة بعد ذلك بالزغاريد ومدح العروس، ثم يرددون قصيدة البردة([11]) وتتوجه العروس إلى منزل العريس، وفي يوم الجمعة يذهب النساء إلى منزل العروس لتجهيز الفطور الخاص بالزفاف، وهو عبارة عن صلصلة باللحم وتُوزع على العائلات، كانت جالسة تستمع إلى الخالة بإنصات شديد منبهرة بما يفعلونه طوال تلك المدة، فهذا لا يحدث في مصر، أردفت أن العروس لا تطبخ لمدة أسبوع أو اثنين وتتكفل أمها بالطبخ بدلًا عنها، ولا تخرج من منزلها إلا بعد أسبوع من الزفاف لزيارة أقارب العريس وزيارة أمها، طأطأت ثريا رأسها لأنها ليس لها أحد في ليبيا، انتبهت لذلك الخالة فأخبرتها أنها ستكون بدلًا من أمها في كل خطوة من خطوات الزفاف؛ شكرتها ثريا بامتنان لطيبتها معها، قالت لها الخالة:

- هناك بعض الأشياء لا يفعلونها الآن في غات نظرًا للتطور كما يقولون، فما تريدينه أن يحدث سنفعله لكِ يا ابنتي.

أخذت ثريا يد الخالة فقبلتها شكرًا لها على ما تفعله لأجلها، أردفت الخالة فدوى:

- أتعلمين! كنت أنتظر اليوم الذي أجد فيه عروسًا لابني تاج الدين، هو ابن أختي لكنه بمثابة ابن بار بها وبي، لا تعلمين مدى سعادتي أنكِ وافقتِ لتعيشي مع أمه دون الانتقال؛ كي يستطيع الاهتمام بها.

نكَّست رأسها لأنها حُرمت الاهتمام من والديها منذ الصغر، شردت تتذكر ما يفعله تاج مع أمه، يطعمها بيديه، ينظفها، يقوم بكل شيء لها، تعلم يقينًا أنها أحبت تلك الصفة فيه، تعلقت به؛ فقد وجدت من يبثها الحب الذي فقدت، بل رأت ذلك في عينيه حينما جاءته عقب اختطافها من المشفى، كان يهتم بوضع الطعام لها، لم يطلب منها أن تفعل شيئًا، لكنها من تطوعت لمساعدته في رعايته لأمه، أخرجتها من شرودها قائلة:

- هيا لننزل من السيارة، لقد وصلنا إلى السوق. انتظرنا يا بُني، سأحاسبك على اليوم كله، لكن لا تتركنا وتذهب.

أومأ لها السائق مردفًا أنه سينتظر معهما حتى نهاية اليوم؛ لأن سيفًا حاسبه على ذلك، أعطاها رقم هاتفه كي تتصل به إن أرادت منه الاقتراب لحمل أي شيء عنهما، ودخلتا إلى السوق ليشتريا كل ما يحتاجانه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يحاول كيرال أن يتذكر ذلك الصوت، يشعر في قرارة نفسه أنه يعرفه، لكن عقله يأبى التذكر، دخل عليه ملثم يسأله أين الخريطة التي تقوده إلى الكنز الذي أخبره عنه قائده الأجنبي؟ أومأ كيرال أنه لا يفهم عما يتحدث، فأخبره

الآخر أنه جاء إلى ليبيا في رحلة استكشاف لمنطقة أكاكوس، جذبه من شعره فأوجعه، صاح عاليًا فجاء قائدهم، أمره بتركه ثم سأل كيرال عن دفتره الذي يدون فيه كل شيء عن أكاكوس وسيفار، فأجابه:

- ليس معي، لقد تركته في إسطنبول، لم أجلبه إلى هنا.

همس في أذنه قائلًا:

- لقد بحثنا عنه في منزلك، ولك الأسوأ: حاولنا قتل ابنك، لكنه نجا ومات صديقه بدلًا منه، إذا أردت الحفاظ على حياة عائلتك عليك أن تخبرني كل ما يخص أكاكوس وسيفار.

تلعثم كيرال لأنه لا يذكر أي شيء عنه، أخبره الرجل أنه يعلم فقده للذاكرة، طلب منه محاولة التذكر وإلا سيفقد عمره هنا، فقال متأففًا:

- لا أذكر أي شيء، صدقني، عقلي لا يستوعب ما تقول، أنا لم أفعل شيئًا يؤذي أحدًا.

أزال الرجل اللثام من على وجهه، وكذلك من كان يقف معه في الغرفة، طلب من أحد الرجال فتح مصباح الغرفة ليرى كيرال وجوههم؛ حتى يتذكر هل آذى أحدًا أم لا، ما إن رأى كيرال وجهيهما صُعق ممسكًا برأسه يصيح كيف يفعلان ذلك؟ !هما من أقرب الناس إليه، هل عليه الخوف من الجميع بعد الآن؟ !

- هل حاولت قتل ابن أختك يا عبد القادر؟ أطاوعك قلبك؟ !

ابتسم إيزل، وعبد القادر لأنه تذكر بعد صدمته، ظل عقله يتخبط لما أخبراه به، لقد أرسلا فارسًا صديقه اشترياه بالمال كي يأتي به إليهما في رحلة وهمية، لكن لِمَ الانتقام؟ ! قال لهما:

- ماذا حدث لكما؟ !أنتما صديقان لي. كيف تفعلان ذلك بنا؟ !

زفر عبد القادر بضيق، بدأ يسرد ذكرياته عن أبيه، رحلته التي فُقد فيها، حتى الدرون الآلية لم تعثر عليه فاعتبروه مفقودًا؛ لأنهم لن يدخلوا المنطقة المحظورة كما فعل هو ليتابع رحلته معه، اقترب منه عبد القادر يسأله:

- هل بحثت عن أبي حينما فُقد؟ لا، لم تفعل، تركتني وحدي أبحث، أخذت فاتن معك كي تريح ضميرك لأنها زوجتك، أما أنا تركتني وحيدًا أبحث عنه وأنا لا أعلم المكان مثلك.

تحدث إيزل قائلًا:

- خرجت وحدك بزوجتك من سيفار، تركتني مع سيمان تائهين في الصحراء حتى وجدنا عبد القادر ورفيقه، فأخذانا معهما، أخذت الخريطة وذهبت تاركًا كل شيء خلفك.

دافع كيرال عن نفسه بأنه ظل يبحث عنهما، لكنه لم يجد لهما أثرًا؛ لذلك حينما وجد مخرجًا أخذها بعد أن ظلا عالقين أكثر من ثلاثة أيام ليخرجا من سيفار، لم يصدقاه، أمسكه عبد القادر من عنقه كاد يقتله، أوقفه فارس الذي جاء منذ برهة، كان يتنصت على ما يُقال، أخبره ما علمه بمكان ابنته وأوس، لكنه ترك خلفهما رجلين يراقبانهما جيدًا حتى يحصل على ما يريد، شعر كيرال بالخوف؛ لقد تسبب في وضع حياة عائلته في خطر، لأول مرة يشعر بالعجز أمام ثلاثتهم، وثق بهم سنوات عدة، أطلعهم على كل ما يخصه، ظن أنهم رفقاء لكنهم لم يكونوا سوى مرضى نفسيين يسعون للانتقام منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلت أوسًا رسالة على هاتفه بأن أخاه سيقيم مراسم الزواج بدءًا من الغد، فرح لأخيه الذي انتظروا زواجه طويلًا، أخبر عائشة بذلك، هنأته متمنية حضور الزفاف، كم تتمنى رؤية زفاف عربي! أخبرته أن لها أصولًا عربية؛ فأمها جزائرية الأصل، لكنها لم تزر الجزائر يومًا، أومأ لها يخبرها أنه يمكنه أخذها إلى هناك عقب إنقاذ أبيها، تحمست للأمر تمنت إيجاده، فتحت هاتفها للتحدث مع أخيها عمر على برنامج يعمل على الإنترنت، اطمأنت عليه بمكالمة فيديو، تحدثت إلى جدتها فأخبرتها بما حاول عمر فعله، وما حدث لرفيقه، كذلك بأن أمها مازالت غاضبة ولا تريد التحدث إلى أي منهما، شعرت عائشة بقبضة تلتهم قلبها خوفًا على أخيها الصغير، سألت عن حاله علمت أنه بخير، زال عنه الخطر بفضل الله، لكنه لم يزل عنهاوأبيها بعد، أغلقت الاتصال، حدثت أوسًا بما علمته فابتسم لها مطمئنًا ثم أردف قائلًا:

- الجزائريون عنيدون جدًّا، يتعصبون لرأيهم، صراحة أنتما الاثنان أخطأتما بفعلكما ما أغضبها.

- كذلك الأتراك يمتلكون العناد؛ لذا أتمنى ألا تعارضني في أمر أختاره.

- لقد رأيت عناد أبيكِ، كيف لا تكونين مثله؟ ! فأنتِ جئتِ رغم طلبي ألا تأتي.

جاءتها رسالة من رقم خاص بأن تتوجه لأخذ أبيها من كهف بأكاكوس، أعطت أوسًا الهاتف ليرى، فأخبرها أنه تسلم نفس الرسالة، لكن مرفق معها صورة البروفيسور؛ لذا هو متوجه إلى هناك.

- أرسلت لقريبي سيف الصورة مع الموقع الذي نتوجه إليه؛ كي نكون بأمان، خافت لفعله ذلك، فهم طلبوا في الرسالة ألا يعرف أحد المكان، طمأنها أوس

قائلًا:

- لا تخافي، هو ضابط متميز وعمله قريب، إن تأخرنا سيأتي إلينا.

قال في نفسه: «هذا إن لم يرسل أحد رفاقه إلى الموقع قبلنا».

وضعت الهاتف في حقيبتها، أخرجت الدفتر، فأخبرته أنها حين وجدته قامت بعمل نسخة وتركتها في مكان آمن تخفي فيه أغراضها؛ لأنها رأت ملحوظة أبيها أنه لا يريد أن يطلع عليه أحد ولا تعلم السبب، ثم تذكرت أنها طلبت منه أن يحدثها عن الكفرة وعن عمر المختار([12]). فلم يفعل، رمقها بنظرة غاضبة مردفًا:

- هل وصلنا إلى المكان بعد لتخبريني أنني لم أقص عليكِما حدث هنا؟ !

- إن كان الطريق طويلًا والقصة كذلك، فهيا ابدأ الآن، أريد أن أستمع إليك إن كنت راويًا جيدًا.

طلب منها ألا تقاطعه بالأسئلة أثناء روايته لها، ثم بدأ يقص عليها أخبار المختار قائلًا:

- كنت صغيرًا حينما أخبرني أبي عنه؛ لأنه يحمل نفس الاسم (عمر المختار)، قال لي: «يا أوس تعال لأخبرك لِمَ سُميتُ عمر المختار؟ لأن أخاك الكبير يريد أن يعرف أيضًا، هيا اجتمعوا ثلاثتكم»،

ما إن اجتمعنا حتى أخبرنا عن رجل عظيم قوي لا يأبه للحق، ولا يخاف إلا من ربه، لم يخش السلاح ولا الطائرات، واجه المستعمرين بأبسط الأسلحة، لكنه أوقع بهم خسائر فادحة، حاربهم عشرين عامًا، رجل احترمه الأعداء من أفعاله، حينما استُشهد كان شامخًا عزيزًا، لم يستسلم ليحافظ على حياته، بل قال:«لقد تعلمت الجهاد في صغري وإن تركتموني سأحاربكم ثانية، لن أترك أرضي لكم، إما ننتصر أو نستشهد هنا.»، مما قاله هذا الأسد الأشم «إنني أؤمن بحقي في الحرية، وحق بلادي في الحياة، وهذا الإيمان أقوى من كل سلاح.».

أخبرته أنها متشوقة لتسمع عنه، فرمقها بغضب؛ لأنه طلب منها عدم المقاطعة، فصمتت، وعدلت عمامتها التي ترتديها على رأسها استعدادًا للتعرض للعواصف الرملية التي قد تحدث في أي لحظة، أكمل حديثه مردفًا:

- كان المختار يعيش في الكفرة، عمل معلمًا للقرآن هنا، تلك المدينة من أكبر الواحات إنتاجًا للتمور والمانجو لأنها شديدة الحرارة كما جربتِ بنفسكِ، لما أراد الاستعمار احتلالها وقف لهم المختار وقاوم حتى آخر نفس في حياته.

- هل يمكنني سؤالك عن شيء يا أوس؟ لِمَ دخل الحرب برغم قلة عتاده كما قلت؟ حتمًا سيُصاب منهم ويقتلوه.

أجابها:

- إنه يجب أن يدافع أولًا لأنها أرضه، ثانيًا لأنه يجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، إنه لا يصح أن يترك مسلم أرضه للعدو، وكما تعلمين أن المستعمرين لا يقتلون شعوب الأرض المحتلة فقط، بل يعذبونهم بشتى الطرق ويأخذون خيراتها، يحرمون الأمهات من أبنائهن، يحاصرونهم بالتجويع، في الأصل ليبيا كانت تابعة لبيزنطة، ثم فتحها عقبة بن نافع وبعده حسان بن النعمان، وظلت بيزنطة تحاول استرجاعها كثيرًا إلى أن فُتحت وأصبحت تحت الحكم العثماني آنذاك، جاء الإيطاليون بدعوى أنهم يريدون تحرير الليبيين من وطأة الحكم العثماني، رغم المقاومة العنيفة للغزو إلا أن الدولة العثمانية قامت بتوقيع اتفاقية سُميت معاهدة لوزان؛ خوفًا على المدنيين من القتل، تفيد بأن إيطاليا تمتلك ليبيا، بعد ذلك قامت إيطاليا بدمج إقليمي طرابلس وبرقة تحت اسم ليبيا للاستيلاء على آبار النفط في أبي مليانة بطرابلس، توالى الاحتلال بعد ذلك في حملات التوغل داخل ليبيا، مما جعل المختار يشن هجماته المتعددة عليهم، كان يتفوق عليهم بمعرفته تضاريس ليبيا وكهوفها.

قطعت حديثه مكالمة هاتفية من رقم خاص، أجاب على المكالمة فإذا به فارس يحدثه ليجلب لهم دفتر كيرال الخاص، التفت إلى عائشة أخبرها بالأمر، فقالت:

- لن أعطيه لأحد إلا حين آخذ أبي.

وافق فارس على الأمر، لكن أوسًا توعده بأنه لن يرحمه بسبب فعلته تلك، رد فارس بسخرية:

- كنت أريد رؤية وجهك حينما استيقظت ولم تجد جثتي يا أوس.

- والله لن أدعك تهنأ يا فارس، إن أصبت البروفيسور بمكروه ومن معك لن أتركك تخرج من أكاكوس.

أخبره فارس أن يحضره بسرعة قبل فوات الأوان، إذا لم يجلبا الدفتر قد يخسرانه للأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتدت ثريا ثياب اليوم الأول في زفافها؛ فستان أصفر ذهبي، وكذلك تاج ارتدى قميص تكمس([13]). أبيض وسروال بنفس اللون وعليهما حولي أسود، نظرت إليه العروس كأنها تراه للمرة الأولى، وقف بجوارها، فكانت أقصر

منه، كان مهندم الشعر والوجه، كذلك لحيته الخفيفة مع بشرته السمراء وجسده العريض رغم نحافته.. سألها لِمَ تنظر إليه هكذا؟ فأخبرته أنها معجبة بملابسه، فأبدى جمال هندامها وصمت، تجمع الناس للتهنئة وتقديم الهدايا، الجميع سعداء يرددون أغاني ليبية قديمة بالدفوف، قاموا بعقد القران وسط الزغاريد وتبادل التهاني، فجأة سمعوا عويلًا وصراخًا كأن هناك صوت امرأة في خطر، توجه الجميع إلى خارج المنزل ليبحثوا، فلم يجدوا شيئًا، تكرر الصوت واقترب منهم شخص يرتدي عباءة تخفي من رأسه حتى أخمص قدميه يقول لهم:

- أوقفوا الأفراح والمناسبات في تلك المنطقة، ألا تعلمون أن الكاف سيغضب إذا حدث شيء مفرح؟ !

توجه له تاج بسؤال:

- من أنت؟ ما كُنهك؟ كيف وصلت إلى منزلي؟

- أنا خادم الكاف، أنسيت!أمنعك يا تاج أن تقيم أفراحًا هنا في ظل حكمي للمنطقة.

ابتسم الجميع ساخرين من الرجل إلا تاج الذي يعلم جيدًا ما يقول خادم الكاف، لكن الغريب أنه في منطقة غات البعيدة عن منطقة جبال أكاكوس، سأله تاج:

- ماذا يريد الكاف، أيها الخادم؟

أخبره أن مَن يريده سيأتي وحده إليه؛ لكن عليه ألا يحاول إنقاذه منه، فإن فعل سيحدث ما لا يُحمد عقباه،

- وأنت تعلم جيدًا ما يحدث.

ابتلع غصة في حلقه قائلًا:

- اللهم احمِ أخي مما يقول.

اختفى الرجل عن الأنظار في لمح البصر أو أقرب من ذلك، صرخة مدوية بعدها اختفاء مفاجئ، هرع جميع مَن بالخارج للدخول فهالهم ما قد رأوا، الأم تسبح في دمائها التي تناثرت في كل مكان، قُتلت غدرًا وهي لا تؤذي أحدًا، ولم يجدوا العروس التي كانت معها هنا، صرخ تاج صرخة تخلع القلوب، لكنه ظل متماسكًا أمام الحضور، طلب من سيف مساعدته لدفن أمه، ثم البحث عن عروسه المفقودة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما يقارب يومًا ونصف قيادة أو أقل بقليل وصل أوس وعائشة إلى أكاكوس طالبًا منها ألا تتحرك من جواره، فهنا الكل يخشى الضياع، ترجلا من السيارة بعد أن وضعا جزءًا من العمامات كأنها لثام حتى لا يستنشقان الرمال، بدءا بالتحرك للبحث عن كاف الجنون الذي لم يأته أوس من قبل، الكهوف متشابهة إلى حد كبير؛ التجاويف، الارتفاع، والرسومات التي تشكلت عبر التعرية على مدار سنوات، طلب من عائشة الخريطة التي وضعها كيرال في كتابه ليسيرا عليها، بعد مدة يسيرة مرا على منطقة رأس الزنوج عند قدم جبال أكاكوس، وقفت تأخذ الصور الفوتوغرافية التي تفيد بحث أبيها، كانت ستسأله عن شيء، لكن جاءته مكالمة أخرى فحواها أنهما مراقبان؛ فعليهما ألا يحاولا التسلل إلى مكان غير موجود في الخريطة وإلا سيندمان أشد الندم، طلب أوس أن يتحدث إلى كيرال، جعل ابنته تتحدث معه ليطمئن قلبها ويواصلان السير إلى مصير مجهول لينقذاه فقط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن
قربان بشري

ليل حالك يبث الرعب في نفس من يأتي إلى هنا، حيث لا يمكن أن يوجد بشري يفكر في المكوث بهذا المكان و لو لساعة واحدة، غرفة واحدة في تلك المنطقة النائية، طلاسم على جدرانها، مشاعل من النيران موقدة خارجها، رائحة نتنة تعبق بالجوار، حيوانات ميتة ملقاة قبل هذه الغرفة التي يجاورها عش للطيور ومربض للغنم، يبدو أنهما وجدا ضالتهما أخيرًا بعد بحث دام أيامًا، دق سيف الباب بهدوء كي يفتح من بالداخل دون أن يرتاب، ما إن رآه تاج الدين تفحصه باشمئزاز، وشم على وجهه ورقبته، وذراعيه حتى أنه يضع مكان شعر رأسه وشمًا غريبًا للتقرب من الجان، أراد الهرب أمسكه سيف من عنقه دفعه داخل الغرفة، ألصقه بالجدار يسأله:

- ماذا يريد منهم؟ أين العروس؟ لم قَتَلتَ أمه؟

أوشك خادم الكاف على الاختناق، لم ينبس بكلمة، يحاول التقاط أنفاسه، لكنه لا يقوى، أبعده عنه تاج ليتحدث، ظل ممسكًا بياقته، تحدث الخادم بأن الكاف يريد قربانًا بشريًّا، جاء لأخذ العروس قامت أمه بحمايتها فقتلها ثم حملها راحلًا، نظر له سيف غاضبًا لا يصدق هذا الدجال الحقير، لكمه بقوة ليسقط على الأرض قائلًا:

- أتريدني أن أصدق ما تقول؟ !

- لا تصدقني، ألم يرسل لك ابن خالتك أن تذهب إليه؟ هذا هو كهف الجنون يا سيادة الضابط، أعلم أنك ستذهب، الكاف يريد شخصًا منكما لا أعلمه، لكنه سيأخذ من يريد.

لطمه تاج على وجهه، فتناثرت دماء من فمه مردفًا:

- لن يرحمك الكاف يا تاج، سيقتص لي منك.

وضع سيف الأصفاد في يديه ساحبًا إياه إلى سيارة الشرطة، يردد الآخر أن الكاف سيثأر له، لن يتركه سيده هكذا، ركب السيارة مرتسمة على وجهه بسمة باردة لا يشوبها سوى نظرة شر متدفقة عبر عينيه، تمتم بكلمات غير مفهومة، فلكمه سيف ثانية حتى يصمت، سأله تاج عن رسالة أوس، فأخبره أن أوسًا بعث له رسالة بالأمس إلى مكان توجهه، وهو كهف الجنون كما قال، زفر بضيق مردفًا:

- سأذهب معك يا سيف عقب عزاء أمي.

لم يكن لسيف إلا الموافقة على طلبه، سيذهبان بعد ثلاثة أيام كاملة مما سيجعلهما يتأخران على أوس، فقال له:

- أخشى أن يصيبهما مكروه.

- لا تقلق يا سيف، معهما الله حتى نذهب.

لم يكن لسيف إلا أن يصمت، فأرسل إلى أوس أنه سيأتي إليه بعد يومين لأن هناك أمورًا قد حدثت وتعطل الزفاف فجأة، اتصل أوس به ليعلم ما حدث فوبخه أخوه الكبير، لكنه لم يخبره أن أمه قد قُتلت، اعتذر منه، أخبره أن البروفيسور قد خُطف؛ لذلك ذهب إلى هناك، لم يرد أن يتركه بعدما علم أن حياته في خطر خاصة أن ابنته لن تهدأ حتى تجده، أغلق تاج يتمتم متذمرًا، ربَّت سيف على كتفه يخبره أنه سيكون بخير، حائر تاج في أمر أخيه الذي يلقي بنفسه في المشكلات دومًا، طالما حذره من تلك الرؤية التي يراها خشية أن تتحقق، تنهد يخبر نفسه:»لعله خير بإذن الله».

ترتجف ذعرًا في العتمة المحيطة بها، لا تسمع سوى أصوات ضوضاء عالية حولها، لا ترى سوى ضوء خافت من بعيد دل على طول المسافة بينها وبينه، حاولت أن تتحدث فلم تستطع؛ كانت مكممة الفم مكبلة اليدين والقدمين، جالسة حيث يكمن كاف أكاكوس، ذكرت ربها في نفسها ليحفظها من كل مكروه، صخب بالخارج، ضوء ساطع يقترب منها خلفه كيان أسود مغطى بعباءته يسيردون خطى ملحوظة، ظلت عيناها تدوران حوله لفهم ماهيته! علمت أنه ليس بشرًا؛ فهو لا يملك قدمين، بل يرتفع عن الأرض بأعجوبة، أخرج يده من كم عباءته فإذا بأظافر طويلة سوداء تشبه الحوافر، سرت رجفة في جسدها جعلتها تقشعر، ليس معها سوى الله- عز وجل-، رددت بقلبها «بسم الله» التي تحاول أن تقولها بصوت عالٍ، لكنها ملجمة اللسان كي لا تفعلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يسيران بين طيات الصحراء، كثبان رملية كثيفة تحيط بهما، صخور ضخمة حولهما، تسأله عن كل شيء تراه، نظر أوس إلى الخريطة، كذلك يفتح برنامج تحديد المواقع ليحدد المسار الذي يريد المشي فيه، لكن الإشارة منقطعة لأنهما ليسا في المدينة، ارتفع ستار الغروب البديع ليرتفع القمر بدرًا في سماء أكاكوس البعيدة عن صخب الأضواء، دخلا يحتميان في كهف صغير من الحيوانات الضارية التي تظهر ليلًا، أخرجت عائشة كتابها والمياه، أما أوس فكان يحمل الطعام، أكلا سويًّا، بدءا يتسامران حول المختار ثانية، فالليل الطويل يحتاج لجلسة سمر لطيفة تؤنس خوفها من هول المكان، قالت له عائشة:

- أكمل القصة التي وقفنا عندها يا أوس.

التفت لها أثناء شرب القهوة التي يحملها معه يسألها هل تتذكر أين توقف أم لا؟ أخبرته بوقوفه عندما بدأ المختار يهاجم دفاعًا عن أرضه، أومأ لها مبتسمًا أنه سيكمل، فسألته:

- هل كان له أبناء أم لم يتزوج عمر المختار؟

أخبرها أنه تزوج وكان له من الأطفال ولد اسمه محمد، كان صغيرًا حين أرسله إلى مصر مع أمه؛ كي يستطيع أن يجاهد في سبيل الله،

- في ليبيا نُقسم إلى قبائل وكل قبيلة لها شيخ، الحياة القبلية عكس الحياة التي تعرفينها، كان المختار من قبيلة منفة ببرقة، تُوفي والد المختار أثناء ذهابه لأداء الحج، فتولى رعايته وأخاه رفيق والده أحمد الغرياني، أدخلهما مدرسة القرآن، كان المختار نابغًا منذ صغره فأحبه جميع شيوخه، وشهدوا له برجاجة العقل والحكمة، اكتسب محبة وسمعة من شيوخ الحركة السنوسية([14])، وبعد فترة قصيرة اصطحبوه معهم إلى مصر والسودان حتى أنه تم تعيينه شيخًا في زاوية عين كلك غرب السودان، ماذا أقول لكِ عن شجاعته؟ ! هذا رجل فدى وطنه بروحه، قالوا أنه ذات مرة أثناء الترحال وقف أمامهم أسد، فأرادت القافلة أن تترك له واحدة من الإبل ليفتدوا أنفسهم به، لكنه رفض قائلًا: «إن الإتاوات التي كان يفرضها القوي منا على الضعيف قد أُبطِلت، فكيف يصح أن نعيدها لحيوان؟ ! والله إنها علامة ذل وهوان، والله إن خرج علينا لندفعه بسلاحنا»، خرج الأسد فقتله وسلخ جلده وعلقه لتراه القبائل الأخرى، حتى أنه حصل على لقب (سيدي)، وهو لقب لم يحظَ به إلا شيوخ السنوسية، فأصبح سيدي عمر رمزًا للجهاد، وله أيضًا لقب (أسد الصحراء)، حينما نُفذ حكم الإعدام في السادس عشر من سبتمبر عام ألف وتسعمائة وواحد وثلاثين أجبروا الناس على الحضور كي يضعفوا همتهم بشنق سيدهم رمز الجهاد أمام أعينهم، لكن همتهم زادت رفضًا للعدوان الفاشي آنذاك، مات عمر وبقي الجهاد وبقي أجره وسيرته التي عاشت أكثر من عمر شانقه، والآن في عصرنا يا عائش هناك جامعة باسمه، كذلك الكثير من الشوارع في مدن ليبيا المختلفة، إننا نحبه ونكنُّ له التقدير والاحترام.

تعجبت من قصته التي يرويها، لكنه لم يصمت، استرسل في الحديث عنه حتى خلدت للنوم، أبقى أوس كومة من القش كان قد جمعها مشتعلةً كي لا تخاف، سمعها تتحدث بعد أن غطت في نوم عميق تقول:»عمر»، ظن أنها تحلم بالمختار ثم قال:»بسم الله» ونام، بعد سويعات أشرقت الشمس وتسللت أشعتها إلى داخل الكهف؛ استيقظت عائشة، اقتربت من أوس توقظه لكنها رأت أفعى وعقربًا بالقرب منه فصرخت وانتفض، أشارت إليه

لينظر؛ أومأ لها أن تصمت حتى يستطيع أن يبعد تلك الزواحف الخطرة، أخذ شعلة من النار فقربها من الأفعى فانصرفت، لكن العقرب كان قد لدغه وهرب، يتأوه من ساقه التي أُصيبت، عليه إخراج السم منها، ظل يعصر الجرح يخرج منه الدماء، غسل ساقه بالماء قاطعًا جزءًا من عمامته ليربط به جرحه، ويكملان المسير، اتكأ على عصا كان يقلب بها النيران، يسيران باتجاه كاف الجنون، كثرت السبل أمامهما بالمعالم المختلفة، يريان نقوش حيوانات ونباتات مختلفة أحيانًا، مع رسوم بشرية لها رؤوس ضخمة أو مجرد رسوم ملونة تعكس الحضارة الرعوية القديمة، جلسا بعد ساعات من البحث عن الكاف للراحة حيث عم الليل، سمع أوس صوت صراخ قادم من بعيد، رأى فجأة أمه أمامه ملابسها يتناثر عليها دماء، وجهها شاحب، سألها ماذا حدث؟ ! كيف ومتى يا أمي؟ ! يبكي، تسمعه عائشة لكنها لا ترى ما يرى، سألته:

- ما بك أوس؟ هل أنت بخير؟

التفت إليها وقد اختفى تمامًا ما كان يرى مندهشًا لاختفائه، مسح دمعة تنساب على وجهه مجيبًا عليها أنه بخير، سمى الله وأخبرها أنهما يجب أن يدخلا إلى كهف قريب، ظلا يبحثان عن كهف في الظلام ليجلسا فيه متجاورين يطمْئن أحدهما الآخر، لكنه اختفى، وجدت كهفًا دخلت إليه تتلفت بحثًا عنه، ولكن كأنه ملح وذاب، جلست وأشعلت النار في الأخشاب التي تحملها في حقيبتها، أما هو كان هائمًا على وجهه خلف شبح أمه الذي وقف أمامه ثانية، سُحر أوس ومشى فبقيت وحدها خائفة لا تعمل إشارة هاتفها، ظلت تتفقد الكتاب الذي معها حتى خلدت إلى النوم، استيقظت على رائحة دخان كثيف، أحدهم أطفأ النار التي أشعلتها، ظلت تسعل بقوة تحاول البحث عن حقيبتها كي تأخذ دواءها بلا جدوى، سقطت تلهث على الأرض، فقدت وعيها فلم تشعر بشيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يهيم إلى وجهة لا يعلمها، يبكي بكاء المكلوم على أمه التي يراها ولا يصل إليها، بقي يومين على هذه الحال، والأخرى ملقاة على ظهرها في كهف لا تعلمه، استيقظت بسبب جرح في قدمها شعرت به، تحاول فتح عينيها ولا ترى، مازالت العتمة تعم المكان، حاولت سحب ساقها لتعتدل، فشعرت بلعاب يسيل على قدمها، شخَّصت عينيها فوجدت عيونًا مضيئة كأنه ذئب أو كلب مفترس قد أصابها وبدأ يجرح جسدها ليلتهمها، لم تصرخ من صدمتها، لكنها قامت لتعدو بسرعة إلى خارج الكهف، لم تجد سوى كهف آخر لتختبئ فيه، سرعان ما سمعت حسيس أنفاس بجوارها، حيوان آخر يلهث، لكنها تجهل كُنهه من شدة الظلام، رائحة كريهة قوية تعبر إلى أنفها بعد مرور الهواء؛ مما يدل على قربه، لا تقوى على الحراك؛ بسبب الإصابة التي آلمتها

والجري للاختباء في أقرب مكان؛ لتنجو بنفسها مما يصيب كل من يدخل تلك المنطقة المهيبة.

مع الصراخ الذي تسمعه ولا يتوقف في منطقة الكاف التي تاهت وسط دهاليزه المتشعبة، ولم تعد ترى رفيقها حولها أو تسمع صوته، لعنت اللحظة التي لم تستمع فيها إلى أمها التي أخبرتها ألا تذهب إلى هناك لما تعلم عنه من أساطير على مر العصور، فهل هو حقًّا كما يزعمون مملكة الجان على الأرض، أم تلك مجرد خرافات يتداولها الناس وانتشرت دون وعي أو حقائق مثبتة؟ أمسكت بيدها آخر وسيلة كي يعلم أحد أين هي، ذلك المسدس الذي يستعمله البحارة ليخبروا السفن أو الطائرات أن هناك شخصًا عالقًا يحتاج إلى المساعدة، قامت بتوجيهه إلى أعلى وأطلقتها قائلة:

- بسم الله، اللهم نجني من هذا الكاف.

سمعت صوت أقدام تقترب، ظنت أنها ستنجو، فقالت تستغيث:

- أنقذوني فضلًا، لا أرى أي شيء، قدمي مصابة بجرح كبير، من يقترب مني الآن؟

بلا قيود حرة لتتحرك يمينًا أو يسارًا لكن الظلام، وإصابتها من يقيدها فتحدث إليها من يقترب قائلًا:

- يبدو على صوتكِ الخوف، لكن لا تتحدثي كأن الموت نهاية الأمر؛ فهناك حياة في الآخرة نقابل فيها من نحب، الآن لا تتحركي، يوجد شيء قريب منكِ سيؤذيكِ، رأيته أثناء دخوله ثم سمعت صوتكِ، الآن اثبتي.

دبَّ الرعب في قلبها عقب كلماته مع شعورها بلعاب يسيل على قدمها المجروح ثانيةً، ثبَّتت قدمها كما أخبرها المتحدث، فجأة أضاء شعلة من النار فخاف الذئب حينما قربها منه تاج، فابتعد مسرعًا.

وجه متسخ، متلطخ، لا تستطيع فتح عينيها من غزارة الدم السائل على جبينها بعد أن ارتطمت في الحائط أثناء سقوطها، أخرج قطعة من القماش فأعطاها لها مع قارورة ماء صغيرة، فشربت حتى شبعت، ثم غسلت وجهها بالمتبقي منه، شكرته على ذلك طالبة منه مساعدتها في الخروج؛ لأنها تائهة لا تعلم الطريق بعد أن خرجت الخريطة التي تحملها ورفيقها، خرجا من الكهف وجدا سيفًا بالخارج، تهللت عائشة قائلة:

- الحمد لله أنك أتيت، لقد اختفى أوس فجأة، لا أعلم أين ذهب؟

- هل كنتِ مع أوس؟ متى اختفى؟

- نعم، كنت معه لأننا نبحث عن أبي، ثم فجأة تحدث إلى نفسه قائلًا:»أمي، كيف حدث هذا؟ !»، ثم بكى، ظل معي بعدها فترة يسيرة، لكنني فقدت أثره في النهاية.

توجه تاج لسيف بسؤال عن الدجال الذي حُبس ليطمئن أنه مازال بداخل محبسه، فأكد له أنه مازال بالداخل، لن يستطيع أن يهرب، تنهد تاج وهو يفكر كيف يمكنهم إيجاد أوس وثريا، أخبره سيف أن قوات الشرطة ستبحث معهم، ابتسم يخبره أن الناس تخاف المجيء إلى هنا،

- «لن تأتي الشرطة».

ورددها مرارًا، أصر سيف على كلامه، فأخبره تاج:

- أتذكر حين فقدت أبي وأختي؟ رفضت قوات الشرطة القدوم إلى أكاكوس، لقد خافوا على أنفسهم وتركوهما للموت، فلا تتعب نفسك بسؤالهم.

نكَّس سيف رأسه حزنًا على ما قال تاج، أخبرتهما عائشة أن هناك أحدًا سرق حقيبتها، كل شيء بحوزتها تم أخذه، أخبرها سيف أنه وجد تلك الحقيبة، فتشتها فوجدت كل شيء كما هو إلا الكتاب الخاص بأبيها، أخرجت هاتفها تحاول التوصل إلى اتفاق مع خاطف أبيها؛ وجدت الرقم غير موجود بالخدمة، صُعقت لذلك، كان سيف يتصل بأوس فوجد هاتفه مازال يعمل، فطلب من أحد رفاقه أن يتوصل إلى موقعه ويرسله إليه، ضمَّد تاج جرح عائشة وأعطاها بعض الطعام، فأكلت شيئًا يسيرًا، ثم شكرته قائلة:

- الآن ما الخطة؟

- سننتظر حتى يرسل لي المختص موقع أوس ونذهب لإنقاذه.

طلبت منه ورقة لتحاول رسم الخريطة التي فقدتها لعلهم يستطيعون التوصل إلى المفقودين، أعطاها ما تريد، جلست تحاول رسمها ووضع الأماكن في مواضعها الصحيحة حتى انتهت منها، نظرا إلى الخريطة منبهرين بما قامت به، ثم قال تاج:

- سنسير عليها إن شاء الله حتى نصل إليهم.

جاءت سيف مكالمة هاتفية من المركز، أخبروه أن الدجال قد هرب من الحبس، كذلك أنهم أرسلوا له موقع أوس، إنه قريب من جبال تاسيلي جنوب غرب ليبيا، سألهم عن الموقع تفصيليًّا فقالوا أنهم أرسلوه إليه في رسالة، شكرهم وأغلق مخبرًا تاجًا بما حدث، لم يتعجب لأنه أخبره أنه يمكنه الهرب بسهولة، ركبوا السيارة فسألت عائشة عن الدجال: هل لسحره تأثير كما تسمع؟ أخبرها تاج أنه يسحر عيون الناس، فقصت له ما كان يحدث معها في

المنزل الذي أخذهما إليه أوس، شرد قليلًا يفكر في أي منزل أخذها أخوه، فعلم من كلامها أنه منزلهم القديم بالكفرة، لام أوسًا في نفسه لِمَأخذهما إلى هناك وهو يعلم ما يحدث فيه؟ ! فطمأنها بقوله:

- المهم الآن أنكِ بخير يا سيدة عائشة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يفتح عينيه في مكان مخيف، يستمع إلى عويل وصوت أمه تناديه، استيقظ أوس من نومته، يُخيل إليه أنها جالسة معه تؤنسه ويؤنسها، قد سُحر بالكامل، أصبح مغيب العقل، استمع إلى بكاء قريب منه، فتحرك من مكانه ليرى من يبكي؛ وجد عروسًا في ثوبها منهمكة في البكاء، جلس بجوارها يجبر كسرها، فنظرت إليه قائلة:

- هل استيقظت يا أوس أخيرًا؟

- هل كنت نائمًا؟ ! أمي كانت هنا تجلس معي، ألم ترِ أمي أثناء جلوسها بجواري؟

- لم أرَ أمك يا أوس.

- كيف أتيتِ إلى هنا يا ثريا، وزفافكِ هذا الأسبوع؟

- لقد خُطفت في يوم الخطبة يا أوس، وأنا هنا منذ أكثر من ثلاثة أيام.

تسمَّر أوس في مكانه، يبحث حوله عن مخرج يسألها عن عائشة، أخبرته أنه جاء وحده إلى هنا، لم تكن معه أي فتاة، جلس يتفكر فيما حدث، في أي مكان من تادرارت أكاكوس كانا معًا، وقف ثانية يقول:

- يجب أن نخرج من هنا، علينا إيجاد مخرج، ساعديني يا ثريا.

لم تجب فالتفت إليها، وجدها صامتة شاحبة الوجه والجسد، لمس جبينها فوجده باردًا كالثلج، أتجمدت الدماء في جسدها على حين غفلة منه، أم كانت ميتة ويُخيل إليه أنها حية؟ حاول إفاقتها بلا جدوى، بكى بكاء لم يبكِ مثله يومًا، كان من المفترض أن يكون زفافها في هذه الأيام؛ فهي مرتدية فستانها، ماذا سيفعل تاج حين يعلم بموتها؟ كان سعيدًا بها.. ظل يندب حظه العاثر وحظ أخيه، غطى وجهها بعمامته، ثم تحرك ليجد مخرجًا من الكاف المسحور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجد نفسه في كهف وحيدًا مع إيزل وعبد القادر، لم يرَ فارسًا أو أحدًا آخر، لم يستمع إلى شيء سوى أنهما حصلا على الكتاب، أراد الاطمئنان على ابنته، لكنهما لم يجعلاه يطمئن، بل أخبراه أنها لقيت حتفها في سبيل إيجاده، حاول

أن يستميل قلب خالها، لكنه أبى أن يخبره مكانها، خرجا به من الكهف، كبَّلا يديه، ثم ربطاه في مؤخرة السيارة وقادها أحدهما ليجره على الرمال بين الصخور؛ علا صوته من شدة الألم، فمهما كان قويًّا فعمره كبير، لن يتحمل آلامًا شديدة خاصة إن كانت بتلك الطريقة المقيتة، ظلا يجرانه لنصف ساعة حتى جُرح من كل مكان في جسده، فكا قيده وتركاه حرًّا فاقدًا وعيه في واحة من واحات غات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقابلا مع فارس عقب ذلك، أخذوا ما أرادوه ثم تحركوا تجاه الخريطة التي رسمها كيرال في كتابه عن أكاكوس، سألهما فارس لماذا يذهبان إلى هناك و الأساطير حول المكان مخيفة حد الموت، وقد حذرهم كيرال سابقًا؟ أجابا بأن الكنوز الموجودة هناك تستحق أكثر من حياتهما، أما هو فمذعور من الذهاب إلى هنا كل عظم ما سمع من أساطير من سكان البلدة عن هذا الكاف الذي لا يدع أحدًا يقترب من مملكته الأسطورية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ينظر سيف إلى الموقع الذي أرسله له صديقه متتبع الهواتف، وجده قريبًا منهم، توجه إليهما ليتحركا خلفه سيرًا على الأقدام، بدأ تاج و عائشة بالسير خلف سيف تغرز قدماهما في الرمال من كثافتها، أثناء ذلك وجدوا وشاح ثريا ملقى على الأرض، أمسكه تاج يخبرهما أنها بالتأكيد مرت من هنا،

- هذا الدجال لن أرحمه إن رأيته، هو من فعل ذلك بها و بأمي.

سألته عائشة عما حدث لهما، فأخبرها أن أمه قد قُتلت وزوجته قد اختُطفت بعد العقد مباشرة، دب الرعب في نفسها وهي التي لا تخاف، لكن تلاشت شجاعتها مما رأت منذ مجيئها؛ اختنقت بالدموع ففتحت لها السبيل لتسيل على وجنتيها، ما إن بدأت أنفاسها تختفي أخرجت علبة الدواء ثم استنشقت منه ما يعطيها القوة، أخبرها تاج أنهم سينقذونهم و كل شيء سيتحسن، تمنت ذلك من كل قلبها، ثم واصلوا المشي حتى وجدوا كهفًا قديمًا مخيفًا كما قيل عنه، يرعب من يراه من الخارج، فما بال بمن يدخل فيه!غريب في هيكله الأسطوري، صخر يتداخل في نتوءات همعهامه المرتفع، وثقوب واسعة يجلل أطرافها السواد واللون البني كأنه لحية نبتت من شعر الزمان، أسطورته يكتبها كل من اقترب منه بحروف خاصة، إبداع لم يُولَد من الخيال وحده، بل شاركت الطبيعة في تصميم أركانه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل التاسع
مملكة الحجارة الأسطورية

روت الأساطير أن هناك حاكمًا لمملكة الحجارة في أكاكوس، تلك المنطقة التي يخشى الناس الاقتراب منها، بل يمنعون غيرهم من ذلك، هذه المنطقة التي كانت غابات لا متناهية من الأشجار، ثم تحولت إلى تلك الصخور التي ترتفع عليها قصور الحجارة، تنتشر فيها الرسوم الصخرية القديمة، وتحكمها قوة غريبة لا تُسكِت حلقات الزمان أصواتها.

بذل كيرال جهدًا كبيرًا من أجل الحصول على الأموال من المؤسسات والجهات الرسمية؛ كي يجمع الفريق الذي اختير بعناية بمعداته؛ من أجل اكتشاف الأسرار الكامنة في ذلك التكوين الطبيعي التاريخي العجيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وسط النخيل المتراص حوله، فتح عينيه ليرى أشعة الشمس تلفح وجهه الملطخ إثر إصابته البالغة بالأمس، حاول أن يتحرك قليلًا حتى وصل إلى عين مائية، وضع يديه فيها يغسل عنه الدم، شرب الماء كأنما لم يشرب قط، تلفت حوله فرأى خرافًا و جِمالًا بالقرب منه، سار إلى أن وصل إليها، رآه صاحب الإبل فتقدم نحوه، لكن كيرال سقط من شدة جوعه، التف الراعي ومن معه حوله ليساعدوه على الجلوس؛ كي يتناول ما يقيم صلبه، ناولوه شرابًا ساخنًا و بعض الطعام الطازج، فأكل حتى الشبع، شكرهم بامتنان ثم سأل:

- أين أنا؟ !

أخبره الراعي بأنه في عين الفرس ببلدة غدامس([15])،، أردف بسؤاله عما حدث له وكيف وصل إلى هنا، فقص عليه كيرال حكايته وأنا بنته موجودة في أكاكوس وهو بحاجة إلى الذهاب إليها؛ قال له الرجل:

- سآخذك إلى هناك، لكن يفصلنا عن إقليم فزان أربع عشرة ساعة أو أكثر بالجِمال، ولن نستطيع التوغل فيها؛ سنتركك في غات، لابد أنك تعلم مدى خطورة الأمر، فالكاف يؤذي من يدخل أكاكوس.

لا بأس، فقط خذني إلى أقرب نقطة من الكاف أكون لك شاكرًا.

ظل كيرال أثناء طريقه يتأمل روعة مدينة غدامس التي قيل أنها جوهرة الصحراء، وأول مدينة تجري من تحتها الأنهار؛ لوجود عين الفرس الذي يرجع عمرها لأربع آلاف سنة.

تتدفق مياهها الطبيعية لتمر عبر خمس قنوات مرورًا بمساجد المدينة وري النخيل و الأشجار، جنة طبيعية خُلقت على الأرض، فكانت غدامس هبة عين الفرس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقفون أمام كهف الجنون تاركين ما يدل على وجودهم بالخارج؛ حتى إذا جاء أحد علم أن هناك أشخاصًا دخلوا ولم يخرجوا بعد، سمو االله مؤكدين ألا يفترقوا عن بعضهم.

مهيب داخله أكثر من خارجه بعد السير فيه، بدأوا يسمعون الأصوات التي تخلع القلوب؛ تلفتوا حولهم بحثًا عن مصدرها، لم يريدوا التفرق، لكنهم اضطروا إلى ذلك لتعدد الأماكن التي تصدر منها، كل منهم اتجه ناحية صوت، رأت عائشة أباها واقفًا ينتظرها، ذهبت إليه وارتمت بين يديه باكيةً تخبره أنها خافت أن تكون خسِرته، أما سيف فوجد أوسًا ينتظره جالسًا مصابًا ينزف من كل مكان؛ فهرول إليه يطبب جروحه، وأما تاج فوجد من يبحث عنها تفتح ذراعيها له، تخبره أنه تأخر عليها، ولكنه لاحظ شيئًا مختلفًا فيها، تبدو شاحبة الوجه؛ شعر أن هناك خطبًا بها، تذكر الأساطير التي تقول أن كل إنسان يدخل يُخيل إليه شيء مختلف عن الآخر، نظر إلى عينيها فوجد نظرتها جافة خالية من الدفء، اقترب منها يقول:

- الحمد لله أنكِ بخير، لقد قلقت عليكِ، الحمد لله الحمد لله.

لم تتحمل أن يذكر الله أمامها، طلبت منه أن يصمت، لكنه أبى، أمسكها من يدها فازرقَّ وجهها، واحمرت عيناها، وهو يقرأ القرآن حتى صرخت متلاشية من بين يديه، سمع صوت صراخ قادم من ناحية اليمين، فرأى أوسًا في يد خادم الكاف، ظن أنه أخوه؛ تحدث إلى خادم الكاف يحذره طالبًا أن يتركه، بدا من هيئته أنه واقع تحت سحر، حدثه تاج قائلًا:

- أخبرني يا أخي، هل أنت بخير؟

التفت إليه أوس، عيناه بيضاء تمامًا، ولم يتعرف على أخيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تبكي بين يدي أبيها تخبره كم تاقت روحها إليه!!

فجأة أسقطها على الأرض، جثم فوقها ينفث في وجهها دخانًا كثيفًا امتلأت به رئتاها، ظلت تسعل، تحاول فتح حقيبتها لأخذ الدواء فلم تستطع؛ فقد أمسك بالحقيبة، تنادي على سيف وتاج:

- أنقذوني!

التفت أوس لصوتها كأنه يعرفه، تحرك تاج محاولًا إنقاذها، هجم عليه أخوه ليعيقه، لم ينقذها سوى أن قالت:»بسم الله»لتقرأ آية الكرسي، استندت على حائط يجاورها فأخذت الحقيبة لتتناول الدواء، شعرت أن روحها مهشمة، قلبها تفتت من الخوف، لم تجد إلا أن تلجأ إلى الله كما علمتها جدتها، ظلت جالسة، تيممت بالتراب ثم أخذت الوشاح الذي ترتديه حول رأسها و وضعته كحجاب، وأخرجت من حقيبتها الآخر الذي وجدوه أثناء سيرهم فوضعته كإزار لتصلي بعد أن ضبطت البوصلة على موضع القِبلة، قامت بأداء ركعتين تسأل ربها أن يخرجها ومن معها من هذا المكان سالمين، سمعت صوت نحيب قريب، فتوجهت إلى مكانه وجدت أوسًا جالسًا في زاوية يضع رأسه على ركبتيه يبكي أمه و زوجة أخيه، فرحت لرؤيته، فنادت عليه؛ رفع رأسه، وما إن رآها أمامه حتى قام ممسكًا بيديها يقول:

- هل أنتِ بخير يا عائش؟ ظننت أنني فقدتكِ، الحمد لله لأنكِ بخير، هل كنتِ تبكين؟

أفلتت يديها من يديه مردفة:

- نعم، كنت تائهة هنا، فصليت و بكيت.

- أعتذر لأنني أمسكت يديكِ، لكنني خفت أن يكون مجرد تخيل، هل تعلمين أن عينيكِ جميلتان و أنتِ تبكين؟

خجلت منه فشكرته، وأخبرته أن أخاه وسيفًا هنا معها يبحثان عنه، وعن ثريا التي وجدوا وشاحها بالقرب من الكاف، فأخبرها أنه وجد جثتها هنا، سيحزن أخوه عندما يعلم الأمر، لكن لم يكن أمامه شيء؛ لأنها كانت بالفعل متوفاة، حزنت لما سمعت، لكنها سألته هل وجد أباها أملا؟ فأخبرها أنه لم يجده، استبشرت خيرًا، وذهبا معًا ليبحثا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقرأ تاج القرآن، يحاول أن يسترجع أخاه لكنه ليس أخاه، ظل يصرخ ويستجديه أن يتوقف عن قراءة القرآن والأذكار التي يقول، لكنه لم يقف حتى احترق، فلما سقط علم أنه ليس أخاه، بل كان جنيًّا يتشكل على هيئته، جاءه خادم الكاف من خلفه يقول:

- لازلت قويًّا يا تاج، لم يستطع سحري ولا قوة الكاف الاقتراب منك.

- أخبرني أين أخي وزوجتي؟

- ما أدراك أنهما على قيد الحياة؟ كل من يدخل إلى هنا يرى شيئًا يحبه أو يخيفه بحسب ما يريد الكاف، من يخرج هو القوي يا تاج، ليس للضعفاء مفر

من هنا.

أخبره تاج أنه يشفق عليه؛ يخدم من هو أضعف منه ليعطيه ما يريد من أشياء محرمة، كيف سولت له نفسه أن هذا خير؟ ! قال تاج:

- أنت مسكين عديم النفع لا تستطيع إيذاء شخص إلا بإذن الله.

- أين ربك الذي يتركني أقتل من أشاء؟ لماذا لا يؤذيني؟

- إن الله يراك، لكنه يتركك لحكمة لا أعلمها، ربما يمهلك كي تتوب، لكنك أُثقلت بالذنوب وأصبحت تفوح منك رائحة العفن والفساد من خلقك أنت والكاف سيدك، والله لن أتركك تخرج من هذا الكاف إن لم تعطني زوجتي وأخي.

- زوجتك أرسلتها للكاف كقربان وأخذها، لن تجد سوى جسدها إن لم تنهشه الحيات الموجودة هنا.

ابتلع تاج غصة في حلقه قائلًا:

- ماذا تقول أنت؟ ماذا فعلت بزوجتي؟

- كان الكاف يريد فتاة بكرً او من مصر، انطبقت الشروط على زوجتك، أما أمك فقُتلت لأنها حاولت مساعدتها كما فعلت مع أختك منذ زمن.

أطلق الخادم ضحكة جعلت تاجًا يستشيط غضبًا، فلكمه، ظل يكيل له اللكمات حتى نزفت الدماء من بين أسنانه، جاءه على إثر الصوت أخوه وعائشة، أخبرهما أن زوجته أُخِذت قربانًا، ماتت ثريا، دمعت عيونهما لرؤيته هكذا، يضرب الخادم بقوة لم يرد تركه، أخذه أوس منه مقيدًا إياه بحبل كان مع عائشة في حقيبتها، سحبوه ليبحثوا عن سيف.

على جانب آخر من الكهف في فجوة منه يجلس سيف بعد خوفه مما رآه؛ ظنًّا منه أنه أوس، لكنه لم يكن هو، الآن يرى نفسه داخل سجن له قضبان يحاول الخروج منه، خلفه أفعى كبيرة بجوارها جثة في الكفن مجهزة للدفن، وأفاعٍ صغيرة تحول بينه وبين الجثة وسط صراخ يسمعه يصدر من الشخص الذي بداخل الكفن، يرى مكان الفم يتحرك، حاول الاقتراب وأقسم على الحية الكبيرة بالله أن تبتعد، لكنها لم تفعل، علم أنها من الجان، فأخذ يقرأ القرآن حتى اختفت، لا يعلم من أين جلب القوة وبداخله خوف شديد، نزع الغطاء عن رأس الجثة التي صمتت بعد محاولات عدة، فوجد أنها جثته هو، ظل يفكر كيف يرى نفسه ميتًا وهو واقف هنا؟ أروحه هي التي ترى بعد خروجها من جسده؟ ! أم كل هذا مجرد خيال كما قال له تاج قبل الدخول أن الكاف يسحر من يدخل إلى وكره؟ نفض الأفكار عن رأسه فهو مازال داخل

السجن الذي رسمه عقله، حاول قراءة القرآن، لكنه لم يستطع، كأن أحدًا لجم لسانه، وكأن شيئًا كالجاث و مجثم على صدره، لم ينقذه سوى أن أيقظه أوس ومن معه بعد أن وجدوه نائمًا يهلوس بكلمات لم يفهموها.

سأله تاج:

- أأنت بخير سيف؟

ابتلع ريقه وهو يلهث كأن أحدًا يجري خلفه مجيبًا:- نعم، نعم بخير، لكنني رأيت نفسي ميتًا في كفن أصرخ و لا يسمعني أحد، أرجوك أخرجني من هنا، لا تتركني ثانيةً.

قال له تاج يطمئن خوفه:

- لا تقلق، ذلك حلم من الشيطان، المكان هنا مسحور، ألم أخبرك؟ !

- أخبرتني، لكنني لم أكن أصدق، لكن في حلمي فعلت مثلك قرأت القرآن.

- هيا، قم يا بطل، لنخرج من هنا، لكن أريد أخذ جثة زوجتي قبل خروجنا.

طأطأ أوس رأسه مجيبًا:

- لقد خبأت جثتها في فجوة قريبة من هنا.

شكره تاج بعين دامعة منكسرة من حزنه عليها، ثم هموا ليجلبوها ويرحلوا، لكن هذا الخبيث المقيد قال له:

- لن تجدها هناك يا تاج، لن يسمح لك الكاف بأخذها.

- حينها سأقتلك ولن يستطيع الكاف الذي تخدمه إنقاذك من بين يدي.

توجهوا لجلب ثريا لدفنها، وصلوا إلى الفجوة التي أخبرهم عنها أوس، أخرجوها، لكنها لم تكن هي، هكذا أخبرهم تاج الذي يقول أنها ليست هي، أمسك بياقة خادم الكاف يسأله:

- أين مكانها؟

لكنه لم يجب، أمسكهم تحدثًا بصوت عالٍ قائلًا:

- أيها الكاف، سأقتل خادمك إن لم تعطني زوجتي، لن أخرج من هنا إلا و هي معي.

صوت فحيح قوي يقترب، أمسكه تاج جيدًا كي لا يهرب، وما إن رأى الكوبرا أمامه خاف، طلب منه أن يتركه، لكنه لم يلتفت إليه.

- سأفعل ما تريد، لكن اتركني، أنت لا تعلم ما هذا؟

- أعلم جيدًا أنه من الجان جاء لمواجهتي، أليس كذلك؟

- ألست خائفًا؟

- لا أخاف إلا من الله الذي خلقني، فأنا لست مثلك.

- الآن ستأكلنا تلك الكوبرا إن لم نخرج كما ابتلعت زوجتك بداخلها وكذلك أمك، لن ينقذنا إلهك الآن.

- ماذا تقول يا خبيث؟ الله يرانا، هو خلقنا وخلقها، سيحمينا منها، أما أنت فضعيف الإيمان بالله، لا تعلم قدرته.

- أنا لا أعبد أحدًا، فقط أخدم الكاف وأفعل ما أريد، ثم بعد ذلك سأموت ولن أُحاسب على ما فعلت، هذه هي الدنيا، لا شيء بعد الموت.

- خسئت، هناك يوم القيامة ستُحاسب أمام الله، سنقتص منك، ستتعذب في قبرك حتى يشاء الله، والله لولا أنه هناك يوم حساب لمات الناس بحسرتهم لعدم قدرتهم على دفع كل الظلم عن أنفسهم.

- أمازلت تعتقد أن هنا كإله؟ ألا ترى تلك الكوبرا؟ سأترك كلها بعد أن تخرجني من هنا، أرسلها لي الكاف ليحميني منكم، ستكونون عشاء مميزًا لها، تستطيع أن ترى زوجتك بداخلها.

هناك خالق لهذا الكون، أؤمن أن الله لن يضيعنا أمام شخص مثلك، سنقتص منك يوم القيامة، وحتمًا سيعاقبك الله في الدنيا.

انقضت الكوبرا على خادم الكاف، فابتلعته داخل أحشائها، سمعوا صرخته حينما بدأت بالتهامه، تناثرت دماؤه على ملابسهم، أقسم عليها تاج بالله أن ترحل ولا تؤذي، لكنها قادمة مأمورة بقتلهم، بدأ يقرأ الرقية والبقية يرددون معه حتى زحفت للخارج، قبل ذلك أخبرته بأن زوجته في وادي الكواكب([16]). جنوب شرق البلاد، خرجوا من كهف الجنون وقلوبهم ليست كما كانت قبل دخوله، كذلك أرواحهم التي أصبحت كالهشيم تذروه الرياح.

سألته عائشة مرتجفة يعلو صدرها ويهبط تستند إلى حائط خلفها يجاورها أوس وسيف مذعورين قائلة:

- أنت تقرأ القرآن فتهرب منك الكوبرا تلك وتتركنا، كيف ذلك؟

أخبرها تاج أن الحيات و الأفاعي تكون غالبًا من الجان، فنقسم عليها بالله فإن كانت من الجان المسلم تتركنا، وإن لم تفعل فلنا أن نقتلها، فإنهم لن يستطيعوا مجابهة تلك الكوبرا إلا بالله عز وجل، لذلك نلجأ إليه.

صمتت بعد أن بدأت أنفاسها بالتلاشي، فأخرجت دواءها واستنشقت منه البعض، أكملوا سيرهم إلى خارج كاف الجنون الذي غيرهم كليًّا، بعد ساعتين تقريبًا أو أكثر وسط دهاليزه المتشابهة وصلوا إلى مخرج غير الذي دخلوا منه، ولم يجدوا إلا العتمة؛ فقد حل الليل، حاولوا استكشاف المكان الذي يقفون فيه، أخبرهم أوس أن عليهم الانتظار حتى الصباح لي سيروا في الصحراء، يشدد من أزر أخيه بأنهم سيجدون زوجته التي يتمنى لقياها، سيذهبون إلى وادي الكواكب عند بزوغ الفجر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دق الباب، فخرج عمر ليرى من القادم، فإذا هو سيمان؛ جاء ليطمئن عليه بعد علمه بالحادث، أدخله عمر إلى حديقة المنزل، فقابلته الجدة ثويبة فسلَّم واطمأن، ثم تحدث سائلًا عن عائشة:

- لِمَ لمْ تأتِ لإكمال رسالتها؟ هل وافقوا على سفرها أم لا؟

- ذهبت عائشة إلى ليبيا لتعتني بأبيها.

- كيف حدث ذلك؟ ثم إننا كنا سنذهب إلى سيفار، جعلتموها تذهب إلى أكاكوس و كنتم خائفين من أن تأتي معي!

أخبره عمر أنها سافرت دون إذن، حجزت للسفر وحدها ولم ترجع لأحد منهم، وأردف قائلًا:

- استيقظنا فلم نجدها في المنزل.

تعجب سيمان مما حدث، كان ينوي أن يأخذها معه إلى سيفار، قام معتذرًا منهم معللًا أن عليه العودة إلى الجامعة، خرج ورك بسيارته، فتح هاتفه متصلًا بصديقه البروفيسور إيزل يسأله عن عائشة، فأخبره أنه لم يرها، حينها توعده سيمان أنها إن أصابها مكروه لن يرحمه، وسيفشي سر سفره المفاجئ لعلمه السابق بمخططه، سخر إيزل من تهديده فأخبره أنها هنا مع شاب ليبي يحميها، أما كيرال فقد نال جزاء ما فعل بنا.

- ماذا فعلتم بالبروفيسور كيرال؟ أخبرني، إيزل.

- لقد أخبرتك أنه نال جزاء ما فعل، أخذنا منه خريطة الكنز وتركناه، كما أخذت أنت أوراق سيفار من مكتبه، ألم تفعل؟ !

اطمأن سيمان أنه لم يُقتل، أنكر أخذه لأي أوراق، لكن إيزل لم يصدقه وأخبره أن أحد رجاله رآه يفعلها، أغلق معه المكالمة ثم قرر أن عليه الذهاب إليهما، لكنه لا يعلم من أين يبدأ الرحلة، علم أنه يجب أن يسأل فاتن عن أي معلومات تعرفها عنهما، فانطلق بسيارته إلى مقرعملها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التفت إيزل لمن معه يخبرهم أن سيمان علم بالأمر، وهو غير مطمئن لذلك؛ فهو لا يريد أن يتأذى أحد العائلة، بدا على عبد القادر عدم القلق من كلامه، فأخبره أنه لا يمكنه المجيء إلى أكاكوس لأنه بالفعل أخذله تصاريح لدخول سيفار، لن يأتي إلى هنا دون أن يذهب إلى سيفار و بصحبة عائشة؛ لأن اسمها في التصاريح، لذا عليهم ألا يخافوا، فهو لن يأتي أبدًا..ابتسم إيزل فقال:

- هل تظن أن سيمان لا يعلم أحدًا غيرك؟ لاتنسَ أن أختك تنظم الرحلات الجوية والبرية في شركتها، قد يستعين بها.

- أعلم فاتن جيدًا، لن تدع أحدًا يذهب إلى سيفار أو أكاكوس، حتى كيرال قد نظم رحلته مع شركة أخرى، هيا لنكمل طريقنا لكنز أكاكوس الخفي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يركب فوق الجمل يأكل قلبه الخوف، جاءته لتهتم به فسقطت في غيابات أكاكوس المظلمة، ناداه صاحب الإبل يخبره أنهم قد اقتربوا من منطقة أكاكوس، فسيتركونه قريبًا ويعودون إلى مدينتهم؛ شكرهم كيرال على كل شيء وأخبرهم أنه سيتدبر أمره، فهو يحفظ خريطة المنطقة جيدًا، طلب منه أن يشتري هاتفه منه مقابل أي شيء يريد، فأعطاه هاتف ابنه الصغير بلا مقابل طالبًا منه أن يعيده حين يخرج من الكاف آمنًا، تمنى له كيرال يومًا سعيدًا شاكرًا له كرمه، نزل من على الجمل، معه حقيبة بها مؤنته، يربط رأسه بعمامة تحفظ رأسه من حرارة الشمس، يسير وحده في أرجاء أكاكوس؛ ليصل إلى شيء يقوده إلى ابنته، بعدأن خيم الليل وجد سيارة أوس على مدخل الكهف، تأكد أنهما بالداخل، شرع في الدخول إلى هناك، لكنه وجد المدخل مغلقًا بصخور متراكمة فوق بعضها، ظل ينادي على عائشة و أوس بلا جدوى، لم يجبه أحد، قرر أن ينتظر للصباح حتى يستطيع البحث عنهما، فتح باب السيارة وجلس فيها، وجد المفاتيح موضوعة بها، أضاء المصابيح فوجد في المقعد الخلفي زينًا نائمًا، شعر باطمئنان فربَّت على كتفه حتى يستيقظ، انتفض زين مرتعبًا يقول:

- ماذا يحدث؟ هل عدتم أخيرًا؟

وجد أمامه كيرال، فأخذ يتلمس جسد هل يطمئن أنه حي، يضحك كيرال عليه لما يقوم به، فسألهم مازحًا:

- هل كنت تحلم بالطعام يا زين؟

وضع زين يده على رأسه حائرًا:

- كيف علمت؟ أكنت أتحدث كالعادة أثناء نومي؟

- نعم، بالمناسبة معي طعام إن كنت جائعًا، لكن أين البقية يا زين؟

نكَّس رأسه معتذرًا منه؛ لأنه خاف أن يدخل معهم الكهف، فجلس ينتظر في السيارة مردفًا:

- منذ يومين لم يخرج أحدهم، بروفيسور.

- هل كان المدخل مفتوحًا ذلك الوقت؟

- نعم، كان مفتوحًا حينما دخلوا وحين غادرت أيضًا، ذهبت لجلب بعض الطعام لكني لم أجد أي مكان قريب من هنا، خفت أن أنسى الطريق فعدت ووجدت الصخور متراكمة أمام المدخل.

أعطاه كيرال جزءًا من الطعام، وأخبره أنه سيخبئ الباقي للصباح؛ كي يستطيعا التحرك لإيجاد مدخل آخر للكهف، أخذ زين يأكل حتى شبع وقص عليهما حدث منذ اختفائه، أنَّب كيرال نفسه لأنه السبب فيما حدث لهم، ثم خلدا إلى النوم للبحث عند الشروق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

داخل الكهف يتجادلون بعد تحطم المدخل الرئيسي، فارس يرتجف خوفًا مما رأى بداخل هذا الكاف من كيانات خفية تُحرِّك صخورًا، وتُظهِر لهم أفاعي، وعقارب تتحدث إليهم، أخبرهم إيزل أن هناك كنزًا مدفونًا عليهم إيجاده، ثم تاه ثلاثتهم، لكنما فائدة الكنز إن لم يخرجوا من هنا أحياءً؟ ! رأى عبد القادر أباه ينادي عليه في فجوة فاتحًا ذراعيه يخبره أنها فتقده طوال السنوات يتمنى أني جده أحد، لكن لم يحدث.

ذهب إليه عبد القادر يسأله متعجبًا مما يرى؛ لأنه فُقِد في سيفار، وليس هنا:

- كيف أتيت إلى هنا يا أبي؟ !

- نقلتني الجان إلى هنا، كلهم عالم واحد متعاون مع بعضه.

توجس عبد القادر مما يرى، ظل يفكر، تراكمت الصخور أمام المدخل وتاه ومن معه داخل الفجوات، الكاف يجعلهم يرون كل ما يخيف أنفسهم أو ما يريدون كما قال لهم كيرال سابقًا، ظلت تعصف الأفكار بداخل رأسه، هل كان كيرال محقًّا فيما قال؟ ! ينظر الآخر له بعيون بريئة تخفي كل الكره والحقد خلفهما، لم يرد عبد القادر الذهاب إليه، فاقترب هو منه، بدأ القبح يظهر على وجهه يسير مرتفعًا عن الأرض، فعلم أنه ليس بشريًّا حاول الهرب، لكن لم تسعفه قدماه فسقط، جثم الآخر فوق صدره متحولًا إلى حية حجمها أضعاف

حجمه، التفَّت حول جسده حتى اختنق تمامًا، متحولَا إلى تمثال حجر بازلتي أسود.

وصل إيزل وحده إلى المكان المحدد للكنز على الخريطة بعد أن تاه كل منهم في دهاليز الكهف، كان يحمل جهازًا لكشف المعادن تحت الأرض، أخرجه ليستكشف هل هناك كنز حقًّا أملا؟ ما إن علم أن هناك معادن تحت الأرض أخرج من حقيبته مجرفة فولاذية ليبدأ الحفر، لكنها لم تفعل شيئًا في صخور الكهف الصلبة، فجأة ظهر أمامه كيان أسود ضخم له وجه قبيح جسده كالدخان يتطاير حوله..

- أنا حارس الكنز، عليك أن تتخلص مني؛ كي تتمكن من أخذه.

- هل هذه خدعة ما يا عبد القادر؟ أنت فقط من يعلم بخصوص سحر الكاف داخل الكهف، يبدو أنك نسيت أنني بروفيسور جامعي لا أؤمن بتلك الخرافات.

- هل تظنني خدعة ما؟ هل الخدعة تفعل هذا؟

رفع إيزل من على الأرض بإشارة من يده، ظل يعلو به و الآخر يصرخ ليستغيث بأحد، لكنه لم يرفق به، فجأة سمع صوت فحيح قريب فإذا بأفعى كبيرة معها الكثير من الأفاعي الصغيرة تنتظر وقوعه على الأرض لتتغذى عليه، دب الخوف في نفسه، لم يعد يعلم كيف ينقذ نفسه من هنا، أي شيء يستغيث به، فهو حتى لا يؤمن بوجود الله، لم يسعه لسانه أن يقول»يا رب»لينقذه، ما شعوره في مأزقه هذا دون أن يستغيث بمن خلقه، وكيف لا يؤمن به وهو خالق كل شيء من الذرة إلى أعظم مخلوقات الكون؟ ! كيف لعقله المستنير أن ينكر وجوده سبحانه؟ ! يبدو أن العلم أحيانًا يجعل النفوس تُلحد لتنكر خالقها تكبرًا و غرورًا، سقط إيزل فتناوبت عليه الأفاعي تنهش منه نهشًا قال:

- يا رب، أنقذني.

تأخر كثيرًا في طلب النجاة من ربه، فقد نهشته الأفاعي في أماكن عدة، لم يرَ الكنز المدفون، كذلك لن يخرج مما أقحم نفسه فيه، ازرقَّ وجهه وتجمدت الدماء في عروقه متحولًا إلى حجارة على هيئته.

فارس لم يسلم أيضًا من الكاف، علم ما في نفسه من خوف، فأرسل له مخاوفه تتجسد أمامه في صورة أشخاص تريد قتله، أو سيحمل سلاحًا بيده، كيرال وزين يحملان ديناميت، أما تلك التي اختطفها تحمل سيفًا ضخمًا أسود اللون، الكل يترقب لحظة الهجوم عليه ليسلبوا روحه الخبيثة التي أودت بهم في كاف الجنون، حاول التراجع للخلف، لكنه وجد عائشة تحمل بندقية قديمة الطراز؛ ابتلع ريقه، لا مفر من الهروب، سيُقتل على أيديهم لا محالة، لكن ما

بالأقدام هم؟ كيف لا يقفون على الأرض، أهم أموات أم أحياء؟ ! هم أشخاص لا روح فيهم، جاءوا ليسلبوه حياته فقط ثم يعودون من حيث أتوا، ظل يتراجع يحاول إيجاد فجوة ما ليحتمي بها، وجد جسد عبد القادر بجواره إيزل لا يتحركان، لا توجد بهما روح؛ لقد ماتوا داخل الكاف، نظر يتوسل إلى أوس ألا يقتله ويتوسل إليهم جميعًا، لكنهم لم يجيبوه، أصبحت مخاوفه حية متمثلة أمام عينيه، كم ظلم واعتدى حتى يصل إلى الكنز الذي طمع به! ونسي الكنز الحقيقي (الرفقة الطيبة)التي خسرها بالجشع الذي ملأ قلبه.

فجأة وجد أمامه عقربًا، حاول العودة إلى الحائط فوجده يعجب العقارب التي قامت بافتراسه، ظلت تلدغه حتى توقف قلبه عن النبض، خسر كل شيء في سبيل كنز لا وجود له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر
عودة مفقود

لاهثة الأنفاس في مكان تجهله، خائفة ترتعد أوصالها، يرتجف قلبها من صوت العواصف المحيطة بها، لا تملك شيئًا للدفاع عن نفسها ضد أي خطر سوى بعض الحجارة حولها، لا يمكنها فعل شيء إلا أن تصل لمكان به ماء، تسير بين صخور ضخمة عديدة على شكل كواكب المجموعة الشمسية، تستند عليه التواصل المسير نحو الجحيم الذي جاءت إليه بإرادتها، رأت ينبوع ماء بعيدًا بجواره أشجار عالية، هرولت لتجلس هناك وترتوي من المياه؛ علَّها تكون نقية عذبة مناسبة للشرب، ما إن وصلت واقتربت منه مدت يدها نحوه لكنه لم يكن سوى سراب رسمه لها عقلها من شدة الحر و العطش، وما السراب إلا شيء نظنه جميلًا، ثم يظهر قبحه عند الاقتراب، ليس لها مأوى في هذا المكان، من يساعدها لتخرج من هنا و تعود إلى بلدها أو إلى الشخص الذي أرادت إكمال رحلتها معه؟ ! أخذت تبكي، قد يحدث لها أسوأ من هذا كله وهو الموت في صحراء نائية تجعلها عرضة للفرائس الضارية الباحثة عن طعام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظت عائشة بعد أن سطعت أشعة الشمس وشعرت بحرارتها، تبعها البقية، فرأوا تاجًا قادمًا نحوهم فسألوه أين كان، أخبرهم أن هذه بل جلب طعام، لكنه لم يجد سوى نخيل فأسقط منه بعض التمور، فأكل و جلب لهم ليأكلوا، غسلته عائشة بماء من القارورة التي تحملها، شكروها، و بدأوا بتناوله حتى شبعوا، اتصل سيف بزين ليجلب لهم السيارة، لم يجب زين من المرة الأولى؛ لأنه كان نائمًا، أخذ كيرال الهاتف ليجيب، كان سيف يظنه زينًا، فطلب منه أن يحضر السيارة إلى مدخل الكهف، أخبره كيرال أن هناك صخورًا متراكمة أغلقت مدخل الكهف، سأله سيف:

- من أنت؟ أين زين؟

- هل ابنتي و أوس معك؟

التفت سيف إليهما يخبرهما أن هناك شخصًا يتحدث إليه يسأل عنهما، أخذ أوس منه الهاتف فقال له:

- من أنت يا سيدي؟

- أنا كيرال، هل معك ابنتي يا أوس؟ أرسل لي موقعكم لآتي و معي زين، سأوقظه في الحال.

تحدثت عائشة إلى أبيها تطمئن على حالته، أخبرها أنه بخير ولا داعٍ للقلق، أغلق معها مؤكدًا عليها إرسال الموقع، فأرسله لهما أوس وجلسوا ينتظرون قدومهما إليهم حامدين الله على أنهما بخير وعلى عودة كيرال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذهب سيمان إلى مقر عمل فاتن ليستخرج منها أي معلومات، أخبرها ما يعرفه، لم تتفوه بشيء إلا أنها حملته مسؤولية ما قد يحدث؛ لعلمه سابقًا أن إيزل يريد الانتقام من زوجها، بل وسافر من أجل ذلك، سألته بعد ذلك:

- هل كان لديك علم بما يحدث لنا هنا؟ قاصدة حادث عمر واللصوص الذين دخلوا منزلها، أقسم لها أنه لم يكن يعلم أيًّا مما يحدث، كل ما يعرفه أن إيزل سافر ليلحق بزوجها فقط، لم تصدقه، طردته من مكتبها دون أن تزوده بأي معلومة تُذكر، فأخبرها أنه سيذهب إلى سيفار ومن هناك سيذهب ليبحث عنهما في أكاكوس، أدارت له ظهرها وما إن خرج أغلقت الباب خلفه، جلست تفكر فيما ستفعل؛ كي تنقذ زوجها وابنتها من انتقام إيزل، اتصلت بالجدة ثويبة أخبرتها ما حدث من سيمان وطلبت منها ألا تعطيه أي معلومات عن عائشة، أغلقت معها ثم اتصلت بأوس، كان واقفًا وسط الجميع، فتنهد طويلًا قائلًا:

- إنها أمكِ يا عائشة، تحدثي أنتِ معها.

أخذت عائشة الهاتف لتتحدث إلى أمها بشوق كبير، أخبرتها كم كانت مخطئة لعدم سماع كلامها و تنفيذ ما أرادت فعله! طمأنتها على أبيها وأنه قادم بعد عدة ساعات من جولة داخلية، واطمأنت كذلك على أخيها وجدتها، وفي النهاية طلبت منها أمها عدم التعامل مطلقًا مع سيمان ولا يهم تلك الرسالة، فلتأخذها من جامعة أخرى، حاولت أن تفهم لِم تخبرها أمها بهذا الآن، لكنها أخبرتها بأنها ستعلم كل شيء عندما تصل إلى إسطنبول سالمة، بعد أن أغلقت أخبرهم تاج أن عليهم أن يقوموا بأداء صلاة الظهر الآن، امتثل الجميع للأمر فوقفت عائشة في صف وحدها وهم في المقدمة، جلسوا يتحدثون عقب الصلاة عن كل ما حدث معهم، لكن قاطعهم تاج قائلًا:

- حاوِلوا نسيان ما حدث، ولنتجه إلى إيجاد ثريا حالما يأتي زين.

- لكن، ماذا إن كان من أخبرنا أنها بوادي الكواكب كاذبًا يا تاج؟ !

قالها أوس متوجسًا من ردة فعله.

- حينها فقط أكون قد فعلت ما بوسعي لإيجادها يا أوس، ألا يكفي أنه قتل أمنا؟ !

دمعت عينا أوس، تذكر لحظة رؤيته لجسدها داخل الكهف وهي ملطخة بالدماء، سمح لدموعه أن تسيل قائلًا:

- لا أعلم كيف جلبها إلى هنا يا تاج؟ ! لقد رأيتها واحتضنت جسدها.

- لم تكن أمك يا أوس، كنت مسحورًا، يُخيل إليك هذا كله، لقد دفنت أمي بيدي.

ربَّت سيف على كتفه يخبره أنها في مكان أفضل من تلك الدنيا، وأن موعدنا الجنة يا أوس، نظر إليه يمسح دمعه يؤكد أنه محق، ظلوا جميعًا جالسين في خيمة التخييم الخاصة بعائشة يحتمون من برودة الصحراء ليلًا.

قالت عائشة:

- لقد تأخرا، أليس كذلك؟ حل الظلام ولم يأتيا.

- لا تقلقي، الغائب حجته معه، ثم إن أوسًا قد تحدث معهما منذ قليل وكانا على مقربة.

أخبرها سيف بذلك، ثم غطَّ في النوم من شدة إرهاقه.

خرجت من الخيمة فرأت ضوء سيارة قادمة إليهم، تهللت مهرولة إليهما، ما إن توقفت السيارة وخرج أبوها ارتمت في حضنه باكية من فرحتها برؤيته ثانيةً قائلة:

- الحمد لله يا أبي أنك بخير.

- الحمد لله على كل حال يا ابنتي، وأحمده أنكِ بخير كذلك، شكرًا لك يا أوس على حمايتها.

- لا شكر على واجب، بروفيسور، كنت معها أشعر بالأمان مثلها، وعندما فقدتها شعرت بالضياع، لكن الحمد لله أننا اجتمعنا بخير حال.

توجه إلى زين قائلًا:

- هيا، استيقظ يا كسول، ألا تعلم شيئًا سوى النوم والطعام؟ !

احتضنه زين وكذلك البقية وضحكوا جميعًا، اجتمعوا على الطعام الذي جلباه أثناء قدومهما، ثم اتفقوا على أن يذهبوا معًا للبحث عن ثريا في وادي الكواكب كما أخبرهم تاج، لم يجبرهم على الذهاب معه، لكن كيرال أخبره أنهم يجب ألا يتركوا بعضهم في وقت الشدة، وهي كانت ولازالت جزءًا من فريق هو عليه البحث عنها، بعد أداء الصلاة جمعوا حاجياتهم، ثم ركبوا

السيارة إلى وجهتهم التالية، تفصلهم ست ساعات تقريبية عن الوصول إليها، سيكون النهار قد حل واختفت الظلمة من السماء.

يقود السيارة أوس منتبهًا للقيادة جيدًا، مرت أربع ساعات فطلب سيف أن يبدل معه ليقود هو، لكنه رفض مخبرًا إياهم أنهم على وشك دخول مدينة الجوف ومنها إلى الكفرة ليتسنى لهم إيجاد الفتاة.

شرد تاج بفكره، حية هي أم ميتة؟ هل هو ذاهب إلى مكان مبهم لأجل شيء لايعلمه؟ زفر بضيق فانتبه له كيرال، فربَّت على كتفه قائلًا:

- لا داعٍ للقلق، سنتأكد من كل شيء.

نظر إليه بعينين بلغهما اليأس، يفقد الكثير ممن يحب دفعة واحدة، أهي ابتلاءات له ليعلم الله سيصبر أم يجزع؟ ! لكن الله يعلم ماذا سيفعل حتمًا، فهو من قدر عليه ذلك سبحانه.

- إن أقدار الله كلها خير، سأكون راضيًا عن ربي ليرضى هو عني.

تعجب كيرال من شجاعته، فقد ذكَّره بأمه، و إيمانها القوي بأن الخير كله فيما قدره الله، فقال له:

- أتعلم؟ ! منذ رؤيتي لأوس ذكرني في إيمانه بشخص ما، ولما رأيتك علمتم من استمد تلك القوة.

سأل أوس:

- بمن ذكرتك، بروفيسور؟

- بعمر المختار، أنت تشبهه إلى حد كبير.

- أعلم ذلك؛ لأن هناك قرابة بيننا، نحن من نفس قبيلته منفة.

- لذلك تضع جملته تلك أمامك خلف مقود السيارة.

التفت بنظره إلى الكلمة المكتوبة، فأخبره أنه يحبها، كذلك أخبره كيرال أنه يحفظها لأنها أعجبته أيضًا منذ أن قرأها وهو يقرأ عن المختار-رحمه الله، فرددها:

«المعركة التي تنتصر فيها وحدك، لا تحتفل بها مع الذين تخلوا عنك وأنت تحتضر بالسيوف».

أتعلم؟ ! أفعل مثلما يقول دومًا، لا أحتفل بما أفعله مع من تخلوا عني، ذكرني يا أوس أنني يجب أن أزور جامعة عمر المختار.

توقف أوس لينزلوا من السيارة، لقد وصلوا إلى وادي الكواكب، لكن لم تسطع الشمس بعد، مازالوا في الظلام، أضاء المصابيح ليروا جيدًا، بدأوا في السير، كذلك ينادون على ثريا التي فقدت وعيها من الجوع، لم تشعر بهم رغم قربها، ظلوا يبحثون كلٌّ في اتجاه بالقرب من بعضهم البعض، وجد أوس آثار أقدام فأخبرهم ليتتبعوها، جاءه تاج يهرول بعد تتبع الآثار لمدة نصف ساعة، وجدها فاقدة وعيها، اقترب منها وأمسك يدها شاكرًا ربه أنها مازالت تنبض، جلبوا له ماءً و طعامًا، حاول أن يجعلها تستفيق، وضع لها الماء في فمها فابتلعت بعضه، غسل وجهها ففتحت جزءًا من عينيها مبتسمة، ثم عاودت النوم، أخرجت عائشة زجاجة عطر صغيرة فجعلت تقربها من أنفها لتشتم علَّها تفيق، ونجحت في ذلك، أسندها تاج على صخرة كبيرة ليطعمها، فتركوا له المجال ليطمئن عليها، قال لها:

- أتعبتِني يا فتاة، خشيت أن أفقدكِ.

تحدثت بهمس:

- أعتذر منك، يبدو أن حظي السيئ سيلازمني دومًا.

لا تقولي هذا، لعل حظي أنا هو العاثر ليس أنتِ، المهم الآن أنكِ بخير، هيا لنعود إلى المنزل.

أسندها لتقوم بعد ما أنهت طعامها، ركبوا جميعًا في السيارة، لكن عائشة طلبت أن تقوم بتصوير وادي الكواكب الجميل، نظر إليها كيرال يخبرها أن هذا ليس وقتًا مناسبًا، فذهب لها أوس ليصورها مع الصخرة حتى تستريح، بدا عليه التذمر يقول:

- أقود كل تلك المسافة ولا تستطيعين ألا تتصوري مع الكواكب الصخرية، أليس كذلك؟ !

أخبرته أنها تخشى ألا تأتي ثانيةً، أردف أنه يجب عليها المجيء مرة أخرى.

لم تترك صخرة إلا أخذت صورة معها، كانت تقف بجوار الصخرة، لكنها معجبة بهذا الجمال البديع الذي قرأت أن وكالة ناسا أطلقت عليه وادي الكواكب؛ فكل الصخور هنا تتخذ في هيأتها شكل الكواكب، ليشعر من يزور هذا الوادي أنه في الفضاء ليس على الأرض.

سألها أوس مباغتًا :هل تطمئن له؟ هل يمكنها ترك بلدها و العيش في بلد مثل ليبيا؟

أخبرته أنها لا تستطيع، فحياتها كلها هناك، تذكرت وصية أمها التي وصتها بها في الهاتف، فهرولت إلى السيارة لتسأل أباها عن سيمان هذا، ذهب أوس

خلفها، فهو لم يأخذ الإجابة التي يريد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كتب سيمان رسالة إلى ثويبة أن تهتم بابنته حتى يعود من رحلته إلى سيفار، أرسل ابنته مع الخادمة الخاصة بها إلى منزلهم، وتوجه إلى المطار ليستقر إلى الجزائر، وصلت سيارة ابنته بعد نصف ساعة، طرقت الخادمة الباب، وقدمت نفسها إلى عمر بأنها تريد مقابلة ثويبة، فأعطته الرسالة ليأخذها لها، أدخلها إلى الحديقة متوجهًا إلى جدته بالرسالة فصُعقت حين فتحتها، فسألته عنهما، أخبرها أنهما في الحديقة، فطلبت منه أن يدعهما تدخلان لتقابلهما، رأت ثويبة فتاة صغيرة شعرها أسود منسدل على كتفيها، بيضاء رقيقة، أخذت الفتاة في حضنها مرحبة بهما، أخذت الخادمة معها لتريها الغرفة الخاصة بالفتاة وكذلك غرفتها هي حتى يعود سيمان من رحلته المفاجئة، اتصلت بفاتن تخبرها ما حدث، دُهشت الأخرى قائلة:

- كيف سافر بتلك السرعة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد سفر طويل اقترح تاج أن يذهبوا إلى منزلهم القديم في مدينة الكفرة مرة أخرى، فارتسمت على وجه عائشة بسمة خفيفة ناظرة إلى أوس الذي علم إلام ترمي هذه النظرة، وبادلها نفس النظرة المترقبة لما قد يحدث أثناء هذا اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر
عودة الخطر

سنوات مضت ورغم طولها لم ينس ما حدث، عاد من جديد ليرى هل سيحقق ما يريد أم أن فضوله سيودي بحياته و حياة من معه.

دخلوا المنزل كل يتبع الآخر، لم يروا من دخل معهم، وبمجرد رؤيتها لهم من بعيد، استعادت نشاطها كي تلعب من جديد، تلك الفتاة التي صاحبت عائشة طيلة المدة التي استقرتها في المنزل، لم تكن فتاة على الحقيقة، بل هي روح هائمة بلا مأوى سوى هذا المنزل، ظن تاج أنه تخلص منها إلى الأبد بخروجهم من المنزل، لكن هذا لم يحدث مطلقًا، فظلت باقية تنتظره وما إن رأت قدومه حتى عادت من جديد.

فتحت عائشة نافذة المنزل لتنظر إلى الخارج، فوجدت والدة صديقتها تلوح لها بيدها كما كانت تفعل من قبل، أشارت لأوس أن يأتي فلم يرَ شيئًا، فإذا بتاج يتوجه إليهما ليرى ما ينظران إليه فوجدها تلوح لهما بابتسامة مصطنعة، أمر عائشة بالدخول إلى غرفتها و أغلق النافذة، كانوا قد قسموا طريقة نومهم؛ ثريا مع عائشة في غرفتها، والبقية يتشاركون البهو والغرفة الأخرى بحسب أماكن النوم، قام زين بعد تناول الطعام ليستنشق بعض الهواء بالخارج، فتح الباب ساحبًا المقعد ليجلس أمام المنزل، فرأى فتاة جميلة تقف قبالته تخبره أنها جائعة، فجلب لها الطعام والشراب وأكلت حتى شبعت، فسألها:

- كيف جئتِ إلى هنا؟

- أسكن مع عائلتي في هذا المنزل هناك، لكن نفذ الطعام لدينا فخرجت كي أستعير القليل منكم، أنت ماذا تعمل؟

- لم يكن هذا المنزل موجودًا عندما أتينا، كيف وصل إلى هنا بتلك السرعة؟ أنا خبير جيولوجي جئت لإكتشاف المنطقة.

- هذا المنزل هنا منذ عشرات السنين، كيف لم تره عندما وصلت؟ ! يبدو أنك مختل.

همَّت لترحل، فأمسك يدها لتجلس معتذرًا، لكنه صرخ لأنها أحرقت يده ووضعت سكينًا بها، رفعته في الهواء تطالب تاجًا بالخروج، خرج مهرولًا فقالت له:

- أنتظر قدومك من مدة طويلة، جاء يوم الأخذ بالثأر يا تاج الدين.

أصبح صوتها مرعبًا جعل الجميع يضعون أيديهم على آذانهم من شدته وقوته، فأخبرها تاج أنه لايخافها ولن يقوم بالدفاع عن نفسه لأنه قتل أباها وتريد أن تثأر له منه، وهو لم يكن إلا مدافعًا عن أمه من أذى أبيها، نظرت إلى زين تتفحصه عن قرب قائلة:

- أترى هذا السمين الذي لا يستطيع التحدث؟ ! سأقتله إن لم تواجهني الآن.

- دعيه وشأنه يا هنداوة، ليس له ذنب فيما حدث.

أخبرته أنها لن تدع أحدًا على قيد الحياة إن لم يفعل ما تريد، طلب منها أن تدعه ليواجهها وحده، لكنها كانت خبيثة، كانت قد سيطرت على عقل زين بعد أن أنزلته على الأرض، أمرته أن يقتل نفسه ففعل وسط صراخ الجميع بهيستيرية كي يتراجع لكنه لم يستطع، تحكمت به فأطاع ما أمرت، عزم تاج على ألا يترك هذه المخلوقة حية طالما تؤذي الناس، ظل يقرأ القرآن و يكرر آيات الرقية الشرعية بصوت عالٍ، فأخبرته أنها لا تشعر بشيء تستفزه كي يتوقف، لكنه لم يفعل، ظل يكرر ويدعو متضرعًا لله حتى احترقت، ماتت كما فعلت بزين الذي لم يؤذها من الأساس.

ذهب الجميع يتفقدون زينًا الذي كان جسده يرتجف وينتفض، طلب منهم ألا يتركوه هنا؛ لأنه خائف، ثم رحل عن عالمنا الذي يترك الظالم ويقتل المظلوم دون ذنب، آخر ما سال منه مع دمائه دمعة الموت التي تُذرف وحدها عند خروج الروح من الجسد، جلبوا غطاء بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة قاموا بتغطيته به، لم ينم أحد هذه الليلة، انتظروا قدوم الإسعاف التي حملت جثة زين، جميعهم راحلون خلفه يودعونه، تلك آخر مرة سيجتمعون فيها معه في طريق واحد، لكنه طريق الموت، بعد استخراج شهادة الوفاة وتصريح الدفن قاموا بدفنه في مقابر عائلة تاج بجوار أبيه، بكى الجميع على فراقه، فما أصعب لحظات الفراق المفاجئة خاصة إن كانت لرفيق أو شقيق له مكانة في القلب!

بعد يومين بدأ كيرال وعائشة الاستعداد للسفر إلى تركيا، اشترط عليهما تاج أن يحضرا حفل زفافه قبل الرحيل فوافقا، حضرا الزفاف على الطريقة الليبية، لكن لم يكن لمدة أسبوع كما يحدث فجعلوه يومًا واحدًا، احتفلوا بالعروس وقدموا الهدايا المميزة، ثم عاد كل شخص إلى منزله بعد أن مر العرس بسلام وأمان.

في اليوم التالي للعرس حدثت خطوة مفاجئة من أوس، فذهب إلى كيرال في الفندق المقيم به، وكان في طريقه إلى جامعة عمر المختار([17]). ليحصل على بعض المعلومات التي تفيده في بحثه، طلب منه أوس الزواج من عائشة، فتعجب كيرال مردفًا:

- هل هي تعلم أنك ستفعل؟

- لا يا سيدي، لم أخبرها.

- أنت شاب شهم، أوس، مثقف ومتسع الثقافات، لكنني أعلم أنها لن تريد البقاء هنا حتى إن وافقت على الزواج منك.

- هل يمكن أن نعرف قرارها هي يا سيدي؟

أخبره أنه سوف يسألها في الأمر، لكن لم يعده بالموافقة.

خرج أوس من الفندق فاصطدم بعائشة دون أن ينتبه، فصرخت في وجهه كي ينتبه بعد ذلك، أخبرها أنه لم يقصد، فصمتت، ابتسم لها قائلًا:

- أأنتِ بخير، أين كنتِ يا عائش؟

أخرجت صورًا من ظرف تحمله معها، فأخبرته أنها طبعت الصور كلها كي تترك له نسخة منها قبل عودتها إلى تركيا، شكرها على روحها الطيبة متمنيًا لها التوفيق فيما سيأتي من عمرها، رحل دون أن يخبرها بمشاعره نحوها؛ لأنه تحدث مع أبيها وترك له الأمر كله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت عائشة على أبيها، كان يتحدث مع أمها عن سفر سيمان المفاجئ تاركًا ابنته لهم، ومعها رسالة بأنه سافر لينقذ كيرال من انتقام إيزل، أخبرها أنه لا يريد التحدث مع هذا الخائن؛ كان يظنه طالبًا مجتهدًا لكنه طعنه في ظهره أو هكذا ظن، سمعت عائشة كل شيء، فتحدثت قائلة:

- لكنه يا أبي أخبرني أنه يحبك ويحترمك، لم يذكرك بسوءقط.

أخبرهما ألا يتحدثا معه ثانية عن سيمان أو إيزل أو حتى عبد القادر، فهذا أمر نهائي لا نقاش فيه.

تعجبت حينما ذكر خالها أيضًا، حاولت أن تفهم منه ما حدث، لكنه لم يقل سوى أنه حاول قتله مع إيزل وفارس رفيقي عمره؛ بحجة أنه تسبب في قتل أبيه منذ سنوات طويلة.

نسي كيرال طلب أوس، لم يتحدث مع عائشة عن الأمر، أحضرت حقيبة وأخذت تجمع أغراضها تجهز لعودتها، أخبرت أباها أنها تريد الذهاب إلى السوق لشراء بعض الهدايا، أمرها أن تذهب مع أوس لا تخرج وحدها، جلس كيرال شاردًا يفكر فيما حدث، لِمَ سرقوا كتابه الذي جمع لأجل كنز لن يحصل عليه أحد؟ هل ذهبوا إلى هناك؟ ماذا حدث لهم؟ نزل ليذ هب إلى الجامعة التي يود زيارتها.

بعد عودته طلبت منه عائشة الذهاب إلى السوق كما أخبرته قبل خروجه، فأوس ينتظرها بالأسفل، أومأ لها بالموافقة، فشعرت أنه يحتاج إلى الخلوة بنفسه قليلًا ليعيد ترتيب أفكار هو كتابة تقرير مفصل عن هذه الرحلة، لم تقل له سوى أن يأخذ ملفًّا قامت بطباعته له، لم يعرف ما فيه، ظن أنها الصور الفوتوغرافية التي أخذوها معًا، تفاجأ أنه كتابه الذي سُرق منه، نظر إليها ممتنًّا وقام فاحتضنها مردفًا:

- شكرًا لكِ يابُنيَّتي، ظننت أنني سأعيده من البداية، أنتِ منقذتي، هيا اذهبي واشتري ما تريدين، لابد أن أوسًا قد بدأ بالتذمر، صحيح يا عائش!هناك أمر هام، تقدم أوس لخطبتك.

لم تتوقع طلبًا كهذا، جلست تخبره أنها لا تفكر في هذا الأمر؛ فهي لازالت تحضر الماجيستير، أوس شاب شهم ولطيف جدًّا لكنها لن تستطيع الموافقة على طلب كهذا، طلب منها كيرال التفكير في الأمر وإعطاء نفسها فرصة، ثم تعطيه الرد بعد ذلك، وافقت على ما قاله ثم طلبت الإذن منه لترحل، نزلت عائشة في المصعد فوجدت أوسًا منتظرًا، ذهبت إليه ثم خرجا من الفندق إلى السيارة مباشرة فسألها:

- كيف حالكِ اليوم، عائشة؟

- الحمد لله، بخير حال، وأنت؟

أجابها أنه بخير، أراد أن يسألها عما أخبر به والدها، لكنه تردد كعادته، ليقود السيارة إلى سوق مدينة غات الكبير، قامت بالتسوق لم تترك أحدًا لم تجلب له هدية، يحمل هو من الأكياس معظمها، طلب أن يذهبا إلى السيارة ليضعا الحقائب ويكملا بعدِ ذلك، أخبرته أن يذهب و هي ستنتظره أمام هذا المتجر، وقفت تشتري سلالًا و أطباقًا من عسف النخيل لأمها، بعد ذهابه تفاجأت بيد تربِّت على كتفها، وصوت متحدث باللغة التركية، التفتت فتفاجأت قائلة:

- بالأمس أمي أخبرتنا أنك ذاهب إلى سيفار، كيف أتيت إلى غات، بروفيسور سيمان؟ !

- كنت أخشى أن يكون أصابكِ مكروه أنتِ و البروفيسور.

- لِمَ ظننت أنه قد يحدث لنا سوء؟ !

لأنني علمت بمخطط إيزل، حدثني صديق خالكِ بعد ما علمت برحيلكِ مباشرة.

هكذا إذًا، لكن أبي لن يصدق ما تقول، بروفيسور سيمان، الوضع تغير كثيرًا، لم نعد نعرف هل أنت صديقٌ أم عدو.

لا أكرهكما يا عائشة صدقًا، أنا أحترمكِ وأباكِ.

جاء أوس ليراها واقفة مع شخص لا يعرفه، فهرول خائفًا بعد كل ما حدث، وقف أمامه يسأله من هو وكيف علم بمكانها، فنظر إليه سيمان متنهدًا بضيق وأخبره أنه لن يؤذيها وأنه فقط يريد مقابلة بروفيسور كيرال ليخبره بأشياء مهمة، نظر إليها أوس ثم سحبها من يدها يلومها لأنها تحدثت معه، فأخبرته أنه البروفيسور المشرف على رسالتها وأنه صديق لأبيها فسكت، وأخبرته أنهما يجب أن يذهبا به إلى كيرال ليعرفا ماذا يريد.

أثناء ذهابهم إلى الفندق رأى سيمان جبال أكاكوس، قوس تن خلجة، وقوس أفازاجار، وقلعة أبو نجيم التي تعود إلى العهد الروماني، تلك المرة شرحت له عائشة لأنها قرأت ورأت كل ما فيها، ثم رأى المسجد العتيق فسألهما عنه، فأخبره أوس أنه مسجد قديم جدًّا، تُقام فيه جميع المناسبات الدينية، طلب منه أوس ألا يسأل عن شيء آخر لكنه كان فضوليًّا يصور كلما تقع عليه عينه، كما يفعل من يرى سحر غات الحقيقي، بعد ثلاث ساعات وصلوا إلى الفندق، فصعدت عائشة و أخبرت أباها بوجود سيمان، فبدل ملابسه ونزل معها لمقابلته، بدا عليه الغضب لظنه أن سيمان خائن كالبقية، وما إن رآه لكمه في وجهه بقوة بدلًا من الترحيب به، فدافع عنه أوس، وأخذ سيمان يسترسل في الحديث ليقص عليه ما حدث منذ البداية، أخبره أنه لم يعلم شيئًا عن الانتقام إلا منذ خمسة أيام فقط بعد أن استلم تصاريح دخول سيفار؛ لأنه كان على تواصل مع عبد القادر ورفيقها للذين يساعدانه في استخراج التصاريح اللازمة، لكنه علم منذ يومين فقط أن عبد القادر و إيزل قد أُغلق عليهما كاف الجنون ولم يخرجا منه ومن معهما إلا رفيق عبد القادر الذي كان ينتظر وغادر المكان بعد انهيار المدخل و انقطاع سبل التواصل معهم، قال له كيرال بصدمة:

- هل ماتوا داخل الكهف؟

لا أعلم إلا هذه المعلومات يا سيدي، والله لم أكن معهما وحينما علمت أنكما في خطر أتيت.

- كيف لي أن أصدقك سيمان، لقد كان رفيقك؟

- هذا ما حدث، لك أن تفعل ما تشاء، أما أنا فذاهب إلى سيفار لأنني اطمأننت عليكما.

قام سيمان بعد أن ترك له مظروفً اكُتب عليه ألا يفتحه إلا في حالة اختفائه في رحلته، واعتذر منهما وودعهما كأنه لن يعود ثانيةً، أعطى عائشة مظروفًا آخر لم يكن مكتوب عليه أي ملاحظات، ففتحته لتجد فيه تقريرًا مفصلًا عن

سيفار ليساعدها في رسالتها، وموافقة منه على عدم سفرها و الاكتفاء بما تفعله في بحثها، تعجبت مما فعل فشكرته على ذلك، فتركهم راحلًا، أوقف سيارة أجرة خارج الفندق ركب فيها، لكن ظل بصره معلقًا بهما حتى اختفت السيارة تمامًا.

- لا أعلم يا أبي لماذا برغم كل هذا لم أصدقه!

- لا أعلم، قلبي لم يطمئن لهذا الأمر.

ينظر لهما أو ستتعجب مما يحدث، فقطع حديثهما بسؤال:

- هل سنتحدث عن هذا الرجل كثيرًا؟ !بروفيسور، هل أخبرتها بطلبي؟

التفتا إليه يرمقانه بنظرة معناها أن هذا ليس الوقت المناسب للحديث، لكنه أصر على السؤال فأخبرته عائشة أنها تريد وقتًا للتفكير، فهي لن تستطيع المكوث في ليبيا، كسا الحزن وجهه فأردف:

- ماذا لو جئت معكِ إلى تركيا؟

تجهم وجهها لأنها لا تعلم هل هي تريد ذلك أم لا، فطلبت منه إعطاءها فرصة للتفكير وبالأخير هم متواصلون دومًا، لنتقطع التواصل معه، أومأ لها بأنه ينتظر ردها بأي وقت، استأذن منهما و رحل ليعود إلى منزله، لم يكن عليه الحلم بها فهي تعيش في بيئة مختلفة عنه، كانت بالنسبة إليه حلمًا بعيدًا لم يستطع الوصول إليه، لكنه لم يستسلم لأنه يعتبر الاستسلام مقبرة للآمال محطمًا للأحلام صغيرة كانت أم كبيرة، زفر بضيق وهو جالس في سيارته قائلًا:

- لن أجزع، سأرضى بالقدر مهما كان، فأقدار الله خير.

ذكَّر كيرال ابنته بأنهما سيغادران إلى تركيا مباشرة غدًا إن شاء الله، طلب منها أن تحاول جمع كل الأشياء ولا تنسى شيئًا، فاحتضنته قائلة:

- كانت تلك الرحلة رائعة رغم كل المخاطر التي واجهتنا يا أبي، لقد اكتسبت خبرات كبيرة في كل شيء.

نعم يا ابنتي، حتى أننا علمنا فيها كل منافق، وألا نغتر لظاهر الحب الذي يظهره الناس، فالقلوب لا يعلم ما فيها إلا الله –عز وجل-.

- لا تحزن يا أبي، هكذا هم البشر، متقلبون بطبيعتهم كما أخبرتني سابقًا، أريد أن أ كرر الرحلة إلى ليبيا مرة أخرى إن شاء الله، وفي المرة القادمة سأتذكر مقولتك جيدًا «لا تتعمق في أكاكوس و إلا خسرت روحك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد أوس إلى منزل خالته، فهو يجلس مع سيف بعد زواج أخيه، دخل غرفته فوجد خالته جالسة تحمل صورة أمه طالبة منه أن يأخذها لقبرها، فقد تاقت روحها لأختها.

لبى طلبها وذهبا معًا إلى القبور، توجها مباشرة إلى مقبرة عائلتهما، فانطلقت خالته إلى داخل المقبرة، أما هو فوجد امرأة تبكي تنادي ابنها، ذهب إليها ليحدثها فالتفتت إليه المرأة الجالسة فإذا هي أمه تبحث عنه، شخَّص بصره عائدًا للوراء ينادي على خالته أن تأتي، فوجدته جالس القرفصاء على الأرض يخبئ وجهه، أمسكته خالته تسأله:

- ماذا بك يا أوس؟

- إنها أمي تجلس هناك يا خالتي.

تلفتت حولها لتجد الفراغ، حزنت لأنه ما زال يخاف دخول القبور؛ لأنه يُخيل إليه أشياء كثيرة عندما يأتي إليها، فمسحت على رأسه تخبره أنها لن تطلب منه إحضارها ثانيةً، سحبته من يده فدخل مقبرة العائلة فدعا لهم جميعًا معها، ثم جلست تتحدث قليلًا مع أمها و أختها، وما إن بدأت الشمس في المغيب طلب منها أوس الرحيل، أثناء رحيله قال لأمه:

- «لقد تاقت روحي إليك، أفتقدك، لم تعد لحياتي معنى من دونكِ يا أمي، السلام عليكِ يا حبة قلبي».

رحل أوس وخالته، لكنه رأى أمه أثناء خروجه أيضًا، لازال يتخيل الأشياء التي يخافها، فالنفس تجعل ما تخافه يتجسد أمامك في أماكن خوفك، فأن تفقد عزيزًا ليس بأمر هين على قلب لين، فكيف إن كانت أمًّا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباح يوم جديد، شمس ساطعة في جو معتدل و السماء صافية كلوحة رُسمت السحب فيها بعناية فائقة، استيقظت عائشة من نوم هانئ حصلت عليه الليلة الماضية، تخبر أباها الذي لم ينم من كثرة تفكيره أن هذا يوم مناسب للسفر و العودة إلى إسطنبول، فأخبرها أن أوسًا لن يأتي ليودعهما، شعرت بغصة في قلبها لا تعلم لِمَ و هي من رفضته؟ ! لكنها اعتادت وجوده معها في كل مكان، لحظات وذكريات سعيدة حُفرت في قلوبهما لن تُمحى آثارها أبدًا، تنهدت بارتياح مردفة:

- ظننت أنه سيأتي، لكن لعله خير يا أبي.

دعيه يا ابنتي، فهو مجروح الآن.

أخذا الحقائب ودخلا المصعد، وقف كيرال لينهي حجز الفندق قبل رحيله ثم طلب منهم إحضار سيارة لتقلهما إلى المطار، جلسا يتناولان الفطور معًا، يتبادلان الحديث والابتسامات حول اشتياقهما لعائلتهما في إسطنبول، حتى وصلت السيارة فانطلقا بها إلى مطار غات الدولي، وفي الطريق كانت الأبصار تتقلب في الأرجاء بنظرة يملأها الإعجاب والحب لتلك الطبيعة التي خلقها الله لا يشوبها شيء في تكوينها البديع، ولا يستطع أن ينحت مثلها إنسان، آملين في العودة إليها يومًا ما.

استيقظ أوس من نومه بعد أحلام مفزعة طوال الليل بسبب رهبته من المقابر، نظر إلى ساعته فانتفض بسرعة ليلحقهما قبل الرحيل، ارتدى ملابسه وهرول إلى سيارته مسرعًا، حاول الاتصال بهما لكن شبكة الهاتف لم تسعفه، وصل إلى الفندق فلم يجدهما، خرج متوجهًا إلى المطار، تفقد المطعم فلم يكونا هناك، اتجه على الفور إلى أماكن الانتظار بالمطار، فوجدهما فاستنار وجهه، أخذ يلتقط أنفاسه قائلًا:

- هل سترحلان دون توديعي؟

التفتا إليه، فقام كيرال واحتضنه مردفًا أنه تأخر، فظن أنه لن يأتي، أماعائشة فاكتفت بالابتسامة فقط، فأخبرها أنه يريد أن يظل صديقًا و أخًا لها إن لم توافق على طلبه، أومأت له بالموافقة فأعطاها هدية جلبها لها وكذلك ثلاث هدايا لعائلتها في تركيا، أما كيرال فقد أعطاه علبة خاصة أخبره أنه وجدها في كاف الجنون، لم يستطع فتحها فجلبها له لأنه مهتم بالمنطقة، وهي ليست قطعة أثرية فهي قطعة تبدو أنها قد فُقدت من شخص زار كاف الجنون من فترة طويلة، شكره كيرال على الهدايا، ثم جلس ثلاثتهم يتحدثون حتى جاء موعد ركوب الطائرة، فذهبا ليركبا طائرتهما، ودمعت عيونهم جميعًا.

فما أصعب لحظات الفراق لأشخاص اعتدنا وجودهم بيننا و أحبتهم قلوبنا، لكن لا مفر من العودة إلى الوطن مهما طال الزمن.

وكما قيل»إن الوطن كالهوية لا يجب التخلي عنه»، فلا تتخلَّ عن موطنك و دافع عنه ولو بدمك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ساعات طوال في الطائرة نزلا أخيرًا إلى مطار إسطنبول، فوجدا عائلتهما في انتظارهما، وكانت مفاجأة للجميع أن عائشة ترتدي حجابًا، أخذتها جدتها في أحضانها تخبرها أنها افتقدتها بشدة، كذلك قالت لها عائشة.

قبَّل كيرال رأس أمه و يدها، واحتضن زوجته وكذلك ابنه، واطمئن الجميع أنهما بخير، فعادوا إلى منزلهم، فقالت ثويبة لحفيدتها:

- تغيرتِ يا عائشة.

لقد تغيرت فيَّ أشياء عدة يا جدتي، لم يقتصر التغيير على ظاهري فقط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخل كيرال مكتبه ليرى هديته التي أعطاها أوس له، فوجد صندوقًا قديمًا يعود إلى زمن بعيد، فعلم أنه لمجنون أكاكوس الإيطالي «موري»([18]). الذي رحل بعد أن أوقف حياته وعلمه على دراسة كل شيء هناك، لكنه لم يستطع كشف الأسرار خلف مملكة الحجارة التي نُحِتت في الجبال على مر العصور، وكأنها من إبداع عباقرة الهندسة المعمارية.

أخفى رسالة سيمان في خزينة مكتبه ليفتحها إن حدث له مكروه، وسوف تظل طفلته في منزلهم تنعم بالرعاية والأمان حتى يعود.

قصت عائشة عليهم كل المخاطر التي واجهتها والأشخاص الذين فُقدوا في تلك الرحلة، وما رأته أمامها من أشياء مرعبة حد الموت، أرادوا أن يعرفوا هل ستكمل مسيرة استكشاف أبيها التي تسير هي على نهجه، فأخبرتهم أن قلبها يريد الذهاب إلى أماكن عدة، لكن عقلها يؤرقه التفكير فيما مضى، فلقد رأت قسوة الحياة لأجل حفنة نقود، قتل النفوس لأجل قطعة من كنز مجهول لا يعلم أحد كيفية الحصول عليه، حتى خادم الكاف قُتل رغم ظنه السابق أنه سيحصل على الكنز، لكنها أخبرتهم أنها علمت بوجود كنز حقيقي آخر كان خفيًّا عنها، وهو عائلتها التي تمنت أن تعود فقد طال رؤيتهم مرة أخيرة، ثم قالت جملة قد قرأتها في كتاب أبيها:

- مهما قالت الأساطير والروايات عن أكاكوس وغيرها بأنها أرض الجان على الأرض فلا يعلم ذلك إلا الله، وإن كان الجان موجودين على الأرض حقيقة لكننا لا نراهم، فيمكننا حماية أنفسنا؛ لأننا نؤمن بالله، فلا داعِ للقلق أبدًا، علينا العبرة بمن سبق ولا ننسى تلك المقولة أبدًا «دعني أخبرك سرًّا، لا تتعمق في أكاكوس وإلا خسرت روحك».

- هل يعني ذلك أنكِ لن تسافري إلى سيمان يومًا ما؟

- لن أفعل مطلقًا، أنت لا تعلم ما رأيته، وعانيته.

- ماذا إن اختفى هناك كغيره؟ ألن تذهبي لإنقاذه كما فعل؟

- لم ينقذنا سوى الله –عز وجل- يا عمر، لن أذهب إلى سيفار مطلقًا، هذا قرار قطعي.

ظل يجادلها ليستفزها فتطلق عليه لسانها كعادتها، لكن تلك المرة قامت من مكانها، فهي لم تعد تلك الفتاة التي تقوم بأمور صبيانية بعد تلك الرحلة التي

جعلتها تكبر عشرين عامًا على عمرها، رأت فيها نفوس البشر التي لا تثبت على حال، أخبرته أنها ذاهبة للعمل على رسالتها المتأخرة، فتعجب من ذلك مردفًا:

- لقد تغيرتِ يا عائش.

- نعم تغيرت، وأنت كذلك.

- صدقتِ يا عائش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مرور شهور من صدور كتاب أبيها الذي أصبح يدرِّسه في الجامعات المختلفة بتركيا، وصلته رسالة خاصة إلى مكتبه بالجامعة ليحضر مناقشة رسالة ابنته.

وبعد أسبوع كامل تأهبوا جميعًا لحضورها، فوجدوا أوسًا هناك منتظرًا قبل الجميع، ذهب إليه كيرال الذي كان يعلم بحضوره وأعطاه كتابه هدية، فرحت عائشة بقدومه، لكنه أسعد منها لدعوتها إياه، وتعرف على العائلة، وقفت هي على المنصة وأخذ المشرفون يسألونها، فارتبكت لكنها مرت بسلام وحصلت على تقدير جيد جدًّا، بارك الجميع لها وقدموا لها باقة من الزهور.

رن هاتف كيرال والمتصل كان شخصًا لم يتوقعوا أن يفعلها، صوته مضطرب خائف من شيء ما غير مرئي أمامه، لم يقل له سوى:

- «أنقذني يا بروفيسور كيرال، سأُقتل هنا».

ثم صرخ واختفى صوته، لاحظوا تجهم وجه كيرال و اضطرابه المفاجئ، فسأله أوس:

- من المتصل، بروفيسور؟ لعله خير.

- من أين يأتي الخير يا أوس؟ ! هذا سيمان يطلب المساعدة، يبدو أنه واقع في مشكلة ما.

قالت عائشة:

- أظن أنه حان وقت فتح رسالته ياأبي.

- أظن ذلك، هل ستكون معنا يا أوس عند فتحها؟

علم أنه بذلك سيكون رفقيهما في الرحلة، فابتسم ثلاثتهم في صمت، لكن اعتلى القلق وجوه البقية، فسألوا كيرال عما ينوي فعله هذه المرة، فقال:

- لاشيء سوى إنقاذ صديق قديم من المخاطر.

جلست ثويبة خائفة، فقالت لهم فاتن:

- لن يذهب أحد منكم إلى سيفار، لن أسمح لكم تلك المرة، ألا تعلمون خطورة الأمر؟ ! فهذه الرحلة تفتقد كل معاني الأمان.

فأخبرها ألا تخاف، فهو يريد نجاح رحلة لم تنجح حينما قام بها في شبابه، هذه المرة هو يمتلك عناصر النجاح التي لم تكن معه وقت ما قام بها.

رافقهم أوس إلى المنزل وقاموا بتحضير احتياجاتهم كاملة؛ لأنهم سيقومون بالرحلة في أقرب وقت.

نام الجميع بعد أن حلَّ الظلام، أخفت فاتن و ثويبة حقائب السفر أثناء نوم الجميع.

أشرقت الشمس معلنة بدء يوم جديد، ملأ الحماس نفوسهم للقيام باستكشاف جديد، لكنهم لم يجدوا خريطة سيفار ولا حقائبهم، ذهبت عائشة إلى أمها تسألها، فأنكرت تمامًا معرفتها بالأمر.

شردت فاتن لوهلة تفكر فيما تسمع، فهي أخفت الحقائب فقط، تُرى من أخذ الخريطة؟ !

ظلوا يبحثون في المنزل بلا فائدة، حتى فاتن لم تجد الحقائب التي أخفتها، فقالت بصوت مسموع:

- تلك إشارة كي لا تذهبوا إلى سيفار.

وجد كيرال ورقة على مكتبه مكتوب بها :«سر مدفون من قديم الأزل، يحتاج من يخرجه إلى النور».

تحمَّس ثلاثتهم أكثر، ومادام هناك حماس عند كيرال فلن يغير رأيه أحد، سينفذ ما يريد، إما الموت وإما النصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

في كاف الجنون رأينا أطماعنا تتشكل أمام أعيننا حية، تحدثنا ونتحدث معها.

يُسحر مَن يدخل هذا المُلك القابع أعلى مملكة الحجارة الأسطورية (كاف الجنون).

فكم من طمع وجشع أعمى البصيرة! فلم يُبصر الخير في شيء إلا المال، والنفوذ، والسلطة، والشهرة.

فمن عاد سالمًا آمنًا فليعلم أن الله قد وهبه حياة جديدة، وعلى هذا ألا يستوجب عليه أن يحسن استغلالها في التقرب إليه؟ !

وأخيرًا علمنا أن هناك ممالك للجان على الأرض، تلك الأماكن سنغوص فيها معًا في الكثير من المغامرات بإذن الله، دمتم بخير.

إلى لقاء آخر مع مملكة جديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

إهـــــداء

شكر خاص

الفصل الأول_ بداية الخطر

الفصل الثاني_ حوادث مريبة

الفصل الثالث_ ماضٍ مؤلم

الفصل الرابع_ تهور عجيب

الفصل الخامس_ المنزل المسكون

الفصل السادس_ اختفاء مبهم

الفصل السابع_ لعنة زفاف

الفصل الثامن_ قربان بشري

الفصل التاسع_ مملكة الحجارة الأسطورية

الفصل العاشر_ عودة مفقود

الفصل الحادي عشر_ عودة الخطر

الفهرس..

Notes

[1←] مسجد الفاتح :بني في عهد الدولة العثمانية، يوجد في منطقة الفاتح في مدينة إسطنبول التركية، وقد سمي على اسم السلطان محمد الفاتح، تم تأسيسه ١٤٦٣ مكان كنيسة بيزنطية قديمة دمرت أثناء الحرب الصليبية.

جامعة أتاتورك: أقدم الجامعات الحكومية التركية، تأسست عام ١٩٥٤ في مدينة أرضروم. [2←]

[←3]

مافو: بحيرة أو واحة قريبة من بحيرة قبرعون وتمتاز بتغير ألوان مياهها بين فترتي النهار والليل، وتحوي أشجار نخيل تمتاز تمورها بطعم فريد.

[4←]
المسجد العتيق: أو المسجد الكبير هو مسجد قديم بمدينة أوجلة في الصحراء الكبرى بمنطقة برقة شرق ليبيا، بقباب مخروطية غير عادية مصنوعة من طوب اللبن والحجر الجيري لتسمح بمرور الضوء والهواء.

[←5]

الجوف: بلدة تقع في جنوب شرق ليبيا، وهي (عاصمة) لبلدية الكفرة، وهي قليلة الأمطار.

[←6]

واو الناموس: جبل بركاني خامد جنوب وسط ليبيا و جنوب الهروج، ارتفاعه٥٧٥ متر، الفوهة يقدر حجمها بين ١٠ إلى ٢٠ كم، تنتشر على سفحه العديد من البحيرات و الأشجار، و يعتبر محمية طبيعية للكثير من الحيوانات.

[←7]
الكُفرة واحة ومدينة تقع في جنوب شرق ليبيا، والكفرة عبارة عن أرخبيل من الواحات، تكثر بها أشجار الزيتون و الخيرات الطبيعية.

[←8]

كالبي: قبعة على الرأس وترتدي فوقها رداء (بتركمت) لونه عادة أحمر وحجاب جلد مزين بخواتم فضة ويضفر شعر العروس بخيوط من الصوف يسمى بالتريلين.

فرقة القنقة بالغيط: فرقة مشهورة عندهم تحضر أثناء بياض المنزل والشوارع المحيطة به. [←9]

[←10]

الريقا: عبارة عن قطعة قماش مستطيلة مخاطة من أسفل الجنبين على هيئة زواية قائمة بها تطريز حول الرقبة عبارة عن رموز نباتات كالنخيل أو أشكال هندسية تشبه الزخارف الأثيوبية.

قصيدة البردة : أغنية شعبية ليبية يتغنى بها النساء في الأفراح. [11←]

[←12]
عمر بن مختار بن عمر المنفي ولد ٢٠ أغسطس ١٨٥٨، ملقب بشيخ الشهداء، أسد الصحراء، و شيخ المجاهدين، من أشهر المقاومين العرب استشهد في ١٦ سبتمبر ١٩٣١.

[←13]

لتكمس : تجلب من السودان ويرتدي منها العريس من اثنين إلى ثلاثة واحدة بيضاء واحدة سوداء وواحدة مصنوعة من الحرير ومن أسفل الرقبة يوجد جيب كبير.

[←14]
السنوسية :حركة إصلاحية ذات طابع إسلامي توجد في ليبيا والسودان تأسست في مستغانم غرب الجزائر عام 1837 عن طريق الشيخ محمد بن علي السنوسي ثم بعدها استقر في ليبيا عام 1843 في مدينة البيضاء.

[←15]
غدامس مدينة ليبية تقع قرب مثلث حدود ليبيا مع كل من تونس والجزائر في الجزء الغربي من البلاد، وترتفع عن مستوى سطح البحر ٣٥٧م . وتبعد ٥٤٣كم جنوب غرب العاصمة طرابلس.

[16←]
وادي الكواكب: (planets valley) جنوب شرق ليبيا، ويقرب من مناطق الكفرة الليبية و شرق العوينات المصرية وجبل العوينات على الحدود مصر.

[←17]
جامعة عمر المختار : أو جامعة البيضاء إحدى جامعات التعليم العالي في ليبيا تقع في مدينة البيضاء. وأول جامعة إسلامية في ليبيا ويرجع تأسيسها عام 1961م.

[←18]
فابريانو موري عالم ايطالي لآثار ما قبل التاريخ، جاء ببعثة آثار عام 1958، لُقب بمجنون أكاكوس لأنه جاء أكثر من بعثة إلى هناك.